جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

عنوان المذكّرة:

أَدَبُ المُقَاوَمَةِ عِنْدَ جَمْعِيَةِ العُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ الجَزَائِرِيِينَ أَحْمَد تَوْفِيق المَدَنِي أُنْمُوذَجاً

مذكرة مقدّمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة و الأدب العربي

تخصص: أدب جزائري

إعداد الطالب:

مولاي حمزة

إشراف الأستاذ:

فلاق محمد

السنة الجامعية: 2018/2017م

شكر و إهداء

- الحمد لله الذي أعان ويسّر، وذلّل الصّعاب لأجل إتمام هذا العمل، فاللهمَّ "**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**" النمل الآية 16. فالحمد لله أولاً وأخيراً
- في هذا المقام يتذكّر المرء منْ له فضلٌ عليه، وفي مقدَّمتهم الوالدين الكريمين، فاللّهم "**رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**" الإسراء الآية 24.
- والشكر موصول لزوجتي الفاضلة وأبنائي، فاللّهمّ "**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**" الفرقان الآية 74.
- كما أتقدّم بجزيل الشكر إلى أستاذي المِفضَال "محمد فلاق" حفظه الله و رعاه، نظير صبره عليَّ وتعاهدِه إياي ورعايته الخاصة التي أَولاها لي، وهذا منذ عرفته في مرحلة الليسانس، فاللّهمّ اكْلَأه بعينك التي لا تنام واحفظه بحفظك الذي لا يُضام.

حمزة

المقدّمة

تُعتبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رافداً أساسياً من روافد الحركة الوطنية الجزائرية التي صنعت تاريخ الجزائر في النصف الأول من القرن الماضي سياسيا وثقافيا، فسخّرت طاقاتها المختلفة من أجل اِنتشال الأمة من الضياع الذي دُفعت إليه دفعاً، وسيقت إليه سوقاً منذ اللحظة الأولى من الإحتلال، فلمّا لم تحقق المقاومات الشعبية المسلحة ما كانت تصبو إليه وهو ردُّ العدوان الفرنسي، عمد الجزائريون إلى نوعٍ آخر من المقاومة، وهي المقاومة بالقلم واللسان والبيان. وجمعية العلماء المسلمين رائدة في ذلك لوجود نظرة ثاقبة وبرنامج مدروس بالإضافة إلى همم عالية للتنفيذ. فكان النَّتاج وفيراً يانعاً اِزدانت به الساحة الأدبية الجزائرية، بداية من العشرينات حتى اندلاع الثورة التحريرية.

كان المنتظر من هذا الأدب أن يكون متقيداً بما جاء في النصوص القانونية التنظيمية للجمعية، في جانبها المتعلق بالبعد عن كل ما هو سياسي، والإهتمام فقط بالجانب الديني. لكن الأمر لم يكن كذلك، فساهم العلماء بكتاباتهم الأدبية في استنهاض الهمم، ودفع الظلم عن الشعب، فكانت سهامهم الأوجع، والجروح التي تخلفها في العدو وأنصاره الأدمى في الساحة، فقد أسهموا في الأدب المقاوم إسهاما لا يكاد يكون له نظير.

فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا وضعت جمعية العلماء لنفسها قوانين تقيدها وتبعدها عن السياسة، ثمّ عَدَلَت في الواقع عن ذلك، وخاضت فيها؟

ثمّ، ما مدى إسهام الجمعية في أدب المقاومة؟ وهل كان لنشاطها في أدب المقاومة تأثير على الجيل الذي فجّر الثورة؟

يعود اختياري هذا الموضوع للبحث لعدّة اعتبارات: أولها ميولي واِهتمامي الشخصي بتراث جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،فكرا ومنهجا وتربية وتعليما ومقاومة.

وثانيها قلة الإهتمام بتراث جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في جامعة بجاية، رغم ثراء تراث الذي خلفته الجمعية و غزارة الإنتاج الفكري والأدبي لرجالاتها.

ومن هنا تبرز أهمية هذا البحث، والمتمثلة في محاولة ردِّ الإعتبار لأدب الجمعية وأدبائها، وكذا نفض الغبار عن تراثٍ ثريٍّ و راقٍ لتطّلع عليه الأجيال. أسوة بما قاله محمد العيد آل خليفة في هذا المقام من أبيات:

إن ذكرى الشـــهيد أرفـع من أن◆◆◆◆◆ترفعوها بالصـخرة الصمـاء

فأقيـموا لهم تماثـــيل عـزّ◆◆◆◆◆في قـلوب ثورية الأهـــواء

و اقــتدوا وائـتسوا بهم في المزايا◆◆◆◆◆ إنـــهم أهل قـدوة و ائـتساء

واخلفوهم بالصدق في خدمة الشعـ◆◆◆◆◆ـب وفي أهـلهم وفي الأبنـاء([1])

وأيضاً محاولة إماطة اللثام عن مدرسة الجمعية في التدرج في التغيير خاصة، وترتيب الأولويات عموماً.

ولا أدَّعي هنا الإحاطة بكلِّ هذه الأفكار. وحسبي هنا أنني حاولت الكشف عن جزء من أدب المقاومة عند الجمعية، مبتدِئاً بنظرة على قانونها الأساسي، ثم ممارستها له في الواقع من خلال نشاطها في التعليم ومحاربة الطرق، ودفاعها على الهوية والانتماء للأمة الجزائرية، مع الوقوف عند بعض النماذج لبعض رواد الجمعية.

والمتصحف لهذا البحث يلاحظ طغيان المنهج التاريخي فيه وهذا لطبيعة الموضوع، سواءً لفترة التناول، وأيضاً لطبيعة الموضوع المرتبط بالسياسة والتاريخ. كما اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي حين درسنا بعض النماذج الأدبية في ثنايا البحث، وفي الفصل التطبيقي خاصةً.

وقد قسمنا هذا البحث إلى مقدمة ومدخلٍ وفصليين وخاتمة.

فعرّفنا في المدخل بأدب المقاومة عامة، حيث عرضنا لموقف النقاد من هذا المصطلح، خاصة ما تعلق بالموضوع والشكل وبأيِّهما يُحتفى. ثم تعرَّضنا لتلازمية أدب المقاومة وظاهرة الظلم

[1] – محمد العيد آل خليفة ،ديوان محمد العيد آل خليفة ، دار الهدى ، الجزائر ، 2010م ، ص 397.

والاحتلال والاستبداد... خاصة في العصر الحاضر، حيث تولِّد الظواهر السالفة الذكر مشاعر وأحاسيس الرفض والتمرد والانقلاب على مفاهيم الخضوع.

كما خصصنا الفصل الأول لتجليات المقاومة في ممارسات الجمعية لاسيما الأدبية منها، فهي لبُّ الموضوع. فبدأنا هذا الفصل بالتطرق لصور المقاومة الأدبية من بداية الاحتلال إلى غاية الحرب العالمية الأولى، وتوقفنا قليلا عند كتاب " المرآة " لـ " حمدان خوجة " باعتباره أول كتاب من هذا النوع وصل إلينا منذ بداية الاحتلال.

ثمّ انتقلنا إلى البحث عن موقع المقاومة في الجمعية من خلال أولاً أبجدياتها القانونية (قانونها الأساسي)، وثانيا من خلال الممارسات التي تنتهجها الجمعية في الواقع السياسي والاجتماعي في نشاطها التعليمي والثقافي والجمعوي التوعوي، والناظر في شعار الجمعية " الإسلام ديننا والعربية لغتنا و الجزائر وطننا " يعلم أنَّ الصدام مع المستعمر آتٍ لأنه ومنذ 1830م يعمل لهدم هذه المقومات الثلاثة.

أما الفصل الثاني فخصصناه للجانب التطبيقي فاخترنا " أحمد توفيق المدني " أنموذجا للدراسة، عرّفنا به وبأعماله في تونس ثم في الجزائر بعد إبعاده إليها، وبمذكراته وأهم محاورها وقيمتها الأدبية والتاريخية. لنختم هذا الفصل ببحث مظاهر أدب المقاومة من الجزء الثاني من مذكراته لأنه خصصه لمرحلة استقراره بالجزائر ابتداءً من سنة 1925 إلى غاية الاستقلال، واخترنا مقالاً له بعنوان "بين الحياة والموت".

كما خصصنا خاتمة البحث لعرض أهم ما توصلنا إليه من نتائج.

وقد اعتمدنا على بعض المصادر لاسيما المرتبطة بتراث رجال الجمعية مثل:

-آثار عبد الحميد بن باديس الطبعة التي أعدّها الدكتور عمار طالبي.

-آثار محمد البشير الإبراهيمي الطبعة التي جمعها اِبنه الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي.

- حياة كفاح، وهي مذكرات أحمد توفيق المدني.

- ديوان محمد العيد آل خليفة.

ومن الكتب المهمة التي اِستفدت منها كثيراً، الدراسة التي قدّمها عبد المالك مرتاض وعنوانها "أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962م، رصد لصور المقاومة في النثر الفني". وكذا كتاب "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945م" لعبد الكريم بوصفصاف.

وقد واجهتني بعض الصعوبات أثناء إعداد هذه المذكّرة، في مقدّمتها تداخل التاريخي والأدبي لطبيعة الموضوع كما أسلفنا ذكره. كما عانيت من شُحٍّ في المراجع وانعدامها في مكتبة الكلية خصوصاً، وإنّه لأمر يحزُّ في النفس أن تُعدمَ آثار ابن باديس والإبراهيمي والميلي والعقبي والمنتقد والشهاب والبصائر... من مكتبة كليةِ آدآبٍ، فليت القائمين على الكلية يعملون على تدارك هذا الأمر.

وفي الأخير أشكر كلّ من ساعدني من أجل إتمام هذه المذكرة، و أخصُّ بالذّكر الأستاذ المشرف "محمد فلاق"، وموظفو ملحقة بجاية للمكتبة الوطنية، الذين فتحوا لي أبواب المكتبة رغم الصّعاب التي يواجهونها أخيراً.

المدخل

ولدت المقاومة مع الإنسان، فهو مقاوم بطبعه لكلِّ ما يُعارض رغباته و توجهاته ، فهي نزوع اِنساني فرضته الفطرة أولاً، ثم محيطه ثانياً. أما ممارسة فعل المقاومة فيختلف حسب الظرف. ومجال بحثنا نحن هو المقاومة بالأدب، أو أدب المقاومة.

إشكالية مصطلح المقاومة:

أول من خاض في هذا المصطلح عربيا هو الأديب الفلسطيني "غسان كنفاني" من خلال كتابيه: "أدب المقاومة في فلسطين المحتلة" و "الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الإحتلال بين 1984 و 1967" ، حيث حاول التقعيد لهذا المصطلح من خلال الحالة الفلسطينية التي كان يعيشها هو بحد ذاته كمثقف وكمناظل في صفوف المقاومة الفلسطينية، لذا كان تصوره للمقاومة محدودا في العنف والبندقية... ورفض الآخر، لكنه يستدرك قائلا بأن "الكلمة تفعل أكثر من فعل النار وتستطيع أن تخترق الحصار"([1]). اِستقر هذا المصطلح في مدونة كنفاني على أنّ المقاومة على صعيد الرفض وعلى صعيد التمسك الصعب بالجذور والمواقف، ويرى أن المقاومة السياسية والثقافية هما الأرض الخصبة للمقاومة المسلحة ويقرُّ بأنّ الشكل الثقافي في المقاومة يطرح أهمية قصوى ليست أقلَّ قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها([2])

و في نفس المنحى يعبر الكاتب والناقد المصري "السيد نجم" عن أدب المقاومة قائلا: "إنَّ أدب المقاومة تحديداً، يتمثل في تَجرُبَتَي الحرب والثورة مع إذكاء مفاهيم وقيم الإنتماء والهوية والحرية، وكل تجارب الدفاع عن الحياة الفضلى التي تُعلِي من شأن الإنسان"([3]) ويبدو واضحا من خلال هذين التحليلين مدى تأثير البيئة في تحديد المصطلح، فالأول- غسان كنفاني - كان في قلب المأساة الفلسطينية، والثاني-السيد نجم- ممن عايش النكبة والنكسة عن قرب.

---

[1]-غسان كنفاني :أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ، مطبعة كركي ، ط1 ، بيروت ، 2013م ، ص 19.

[2]- يُنظر : عادل الأسطة: أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات ، مؤسسة فلسطين للثقافة ، ط2 ، دمشق 1429هـ/2008م، ص 27.

[3]-طارق عبود : عن الأدب المقاوم و دوره التاريخي ، مقال نشر في موقع الميادين نت

هذه النظرة محدودة كثيرا تكاد تكون مقتصرة على حالة بعينها أو مشابهة لها، "لكن المقاومة في مفهومها العام هي ردّة فعلٍ مجتمعيةٍ واعيةٍ ضدّ واقعٍ مرفوضٍ، أو غير مشروع، أو لمواجهة إستبداد أو إستعباد أو ظلم أو تمييز أو إحتلال ..."([1]).

المتأمل في الرُؤى السابقة يلفت إنتباهه ثنائية أو تلازمية الظلم والإستبداد وكل مرادفاتهما مع ظاهرة المقاومة، فمتى وُجد الأول ظهر الثاني ،ووُجود الثاني يعني أن الأول قد سبقه فمتى وجد الظلم تولد المقاومة، وتتمظهر أدبيا في أدب المقاومة.

إشكالية المضمون و الجمالية في أدب المقاومة:

أثار النقاد إشكاليات عديدة تتعلق بأدب المقاومة، أهمها إشكالية المضمون والجمالية فقد "إختلفت أقوال النقاد في كيفية مقاربة النص الإبداعي، و هل هو نص ينهض على الجمال ويقوم له، وينعقد من أجله، ويبتعد من كونه حاملا لقضية ما، أم هو نص في خدمة مشاريع ورُؤَى يتوسلها الكاتب من أجل الدفاع عن قضية أو فكرة ينتمي إليها ويُروِّج لها "([2]) .

كما عِيبَ على أدب المقاومة أنه ذو موضوع واحدٍ ووحيد وهو محاربة الظلم والعدوان...، ولكن من جهة أخرى يرى آخرون أنّ ذلك (الموضوع الوحيد) من سماته و ليس من مثالبه، فأيُّ موضوع تحيا به النفوس ،وتزهو به المجتمعات ،ويُتَغَنَى فيه بالحرية، فأيُّ موضوع أجلُّ منه؟ يقول عادل الأسطة في هذه النقطة " لطالما وُجِّه إتهام إليه – يقصد أدب المقاومة – على أنه أدب يدور حول موضوع واحد وهو الموضوع الوطني ،ولطالما قِيل أنه أدب تنبع قيمته من موضوعه لا من جماليته "([3]). ثم يعطينا مثالا عن محمود درويش، فبعد معاهدة أوسلو بدأ يكتب عن الحبِّ و الجمال، فما إن اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الأولى حتى ترك ذلك " وعاد إلى ما كان يكتبه ،و في الانتفاضة أيضا فضّل الحرية على الجمال، و إن كان الأخير أيضا

---

[1]-يوسف الحسن : ثقافة المقاومة ، جريدة الإتحاد الإلكترونية الإماراتية.

[2] -المرجع السابق.

[3] – عادل الأسطة ، أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، ص 7.

يهمه "([1]).و لكن هذا لا يعني أن أدب المقاومة ضعيف فنيا، يقول رجاء النقاش- ناقد فلسطيني – عن شعراء المقاومة في الأراضي المحتلة " إن هناك حركة شعرية ناضجة و رائعة في داخل الأرض المحتلة،و أنّ الحكم بنضجها وروعتها من الناحية الفنية والفكرية ليس راجعا إلى تعاطفنا السياسي أو النضالي مع هذه الحركة، بسبب ما يعانيه أصحابها من الشعراء الشبان في ظروف حياتهم الصعبة داخل أسوار إسرائيل [...] إن هذا التعاطف حقيقة لا شك فيها، ولكن الحركة الشعرية الجديدة داخل الأرض المحتلة تتمتع بقيمة فنية على أكبر درجة من النضج والأصالة، بصرف النظر عن جميع الإعتبارات السياسية والعاطفية الأخرى. إن الشعراء الشباب البارزين في الأرض المحتلة هم شعراء موهوبون "([2]).

[1] – عادل الأسطة ، أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، ص 7.

[2] –المرجع نفسه ، ص 7 .

الفصل الأول:

أدب المقاومة في القرن التاسع عشر

وعند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

نشأت جمعية العلماء المسلمين رسمياً سنة 1931م، كردَّ على الهالة التي أرادت فرنسا صنعها لاحتفالاتها بمناسبة مئوية احتلالها للجزائر، أمّا نشاط رجالها فكانت بداياته قبل ذلك بأكثر من خمس عشر (15) سنةً، وقبل ذلك كيف واكب الأدب رفض الشعب للاحتلال؟ وهل حُفِظَت لنا مدونات في الأدب المقاوم لتلك الفترة (من بداية الاحتلال إلى غاية الحرب العالمية الأولى)؟

أدب المقاومة قي القرن التاسع عشر:

غادر "الداي حسين" الجزائر بعد توقيعه معاهدة الإستسلام (05 جويلية 1830م)، ومعه حاشيته و ما تبقى من جنده ،وترك الجزائريين أمام مصيرهم ،بين يدي قومٍ ليست الإنسانية لهم بعنوان ،و لا الشهامة لها عندهم مكان ،عاثوا في الأرض فساداً ،نهباً للممتلكات ،و تدنيساً للمقدسات ، هتكاً للأعراض ،إزهاقاً للأرواح .و كانت المعاهدة السابقة الذكر بدايةً لمرحلة جديدة قاسيةٍ من تاريخ الجزائر فكان واضحاً من خلال الأحداث التي كانت بعدها ، مدى الحقد و الغلِّ و القسوة و الجبروت الذي كان مسلَّطاً على الجزائريين ، وأنقل هنا صورة من صورها الكثيرة التي يتعذّر علينا هنا استقصائها . كتب العقيد الفرنسي المجند في الجزائر "دومونتانيك" رسالة إلى صديقه في فرنسا العميد "لامورسيار" يصف له يومياته الدموية و مما كتبه مجزرة قبيلة "أولاد هداج" سنة 1845م حيث آوى عدد من أفرادها إلى أحد الكهوف هرباً من بطش الجنود الفرنسيين المتعطشيين للدماء ، فتمَّ حصارهم داخل الكهف و أُعطيت لهم مهلة عشر(10) ساعات للاِستسلام ،و قبل نهاية المهلة أوقد الجنود ناراً عظيمة سدّت مدخل الكهف و بدأ من في الداخل في الإختناق ،و يصوّر العقيد دومونتانيك المجزرة بالتفاصيل الدقيقة ،قال "أيُّ ريشة تستطيع وصف هذا المنظر؟ عند منتصف الليل ، و تحت ضوء القمر، لقد شُغل قسم من القوات الفرنسية في تهية النار المستعرة ، إننا نسمع الأنّات المتقطّعة المنبعثة من الرجال و النساء و الأطفال و الحيوان ، وطقطقة الصخور المحترقة و هي تتساقط ، وطلقات الأسلحة المستمرة ،لقد حدث في هذا اليوم أعنف صراعٍ بين الإنسان و الحيوان ،ففي الصباح ،

بينما كنا نخلي مدخل الكهوف فوجئنا بأعنف مشهد يقع عليه البصر ، لقد رأينا في داخل الكهوف جثث الثيران و الأغنام و الحمير التي اندفعت بغريزتها الفطرية إلى التنفس من الهواء الطبيعي الذي حُرمت منه في الداخل ، وقد تجمعت بين هذه الحيوانات و تحتها جثث الرجال و النساء و الأطفال ، و رأيت رجلاً ميتا جاثيا على ركبتيه ،تمسك يمناه بقرن ثورٍ، وبالقرب منه إمرأة تحمل طفلها على ذراعيها ، ومن السهل التعرف على أحداث هذا المنظر: فالرجل اختنق مع امرأته و طفله و الثور أيضاً في الوقت الذي كان الرجل فيه يدافع عن عائلته من ثورة هذا الحيوان وهو يصارع الموت. لقد كانت الكهوف واسعة ،حتى إننا أحصينا فيها سبعمائة و ستين جثة ،و لم ينج و يتمكن من الخروج سوى ستين إنسانا ،ما لبث أن فقد أربعون منهم الحياة ،و نقل رجال الإسعاف عشرة منهم في حالة خطيرة ،و أما الباقون وهم عشرة فقد تركناهم يعودون إلى قومهم يقفون على الأطلال ويبكون الخراب ويندبون موتاهم"([1]). إنها صورة لجريمة بشعة تكررت كثيراً طوال فترة الإحتلال،منها ما أُرخَ له و منها ما طُمس و اندثر ،وما أكثرها.

جريمة أخرى من نوع آخر، كان هدفها واضحاً ، حدّثنا عنها "حمدان خوجة" في كتابه (المرآة) قائلاً: "لقد أمر السيد الجنرال كلوزيل بتهديم محلات تدعى القيصرية ،كانت تبيع الكتب التي هي أدوات الحضارة ،و التي تُنير طريق الإنسان المثقف ، وفيها كان يوجد الناسخون ، لأن المطابع معدومة في أفريقيا ،و بما أن الفرنسيين كانوا ينوون إدخال الحضارة إلى أفريقيا فلماذا وقع تهديم هذا المصدر الذي كان يعطي العلم و المعرفة في جميع الميادين ؟إن هذا السلوك يدل على أن هذا الجنرال بدلاً من أن يعمل على تزويدنا بنور العلم و الحضارة ،كان ينوي إغراقنا في ظلمات الجهل"([2])، وكذلك يفعلون ،فمع نهاية القرن التاسع عشر أصبح العلم

---

[1]- محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ، ج4 ، المكتب الإسلامي ، ط2 ، بيروت ، 1996 ، ص243.

[2] – حمدان بن عثمان خوجة ، المرآة ، تعريب:محمد العربي الزبيري ، طباعة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 ،ص 277.

والمعرفة عملة نادرة في الجزائر، أما المتعلمون فهم نزر يسر ممن أُوتيَ حظاً عظيماً، وهم أندر من الكبريت الأحمر.

إنَّ سياسة التجهيل التي اِنتهجتها سلطات الإحتلال في الجزائر قضت حتى على الطبقة المتعلمة التي كانت موجودة قبل سيطرتها على البلاد ، وهذا ما يفسر الجمود الثقافي الذي أعقب فترة الإحتلال الفرنسي الذي " لم يتوان في إخراص الأصوات المتعالية ، و تكميم الأفواه المحتجَّة ، و الإقدام على العبث بما كان لايزال باقيا من أصول الثقافة العربية الإسلامية ومقومات الشخصية الوطنية في الجزائر"([1])، فضيّق على المدارس الدينية و الكتاتيب المعلمة للقرآن و صادرت و نهبت المكتبات المسجدية و العامة و الخاصة ،"كانت شعوب المغرب محرومة من كل أداة للتعبير عن ذات نفسها"([2]).

ليس من الغريب خلو الساحة الثقافية من حراك أدبي مساير للتغيرات التي مسّت جميع مناحي الحياة و المصاحبة لمرحلة الغزو . فمن الصعب " لشعبٍ حُرِم نعمة الخبز كما حُرِم نعمة الجسم ، ونضرة الوجه♦ ،أن يطمح إلى إنتاج معرفة عميقة المضمون ، و يشرئِبَّ إلى إبداع ثقافة جميلة الشكل ، رفيعة المستوى"([3]) ، إن صدمة الجزائريين نتيجة الغزو و نتائجه نالت من الجميع و أبكمت حتى المثقفيين ، حتى " إنَّ المرء ليحار حيراناً مذهلاً ، و يسمد سموداً مدهشاً حين يتتبع أخبار المقاومة الوطنية في أسفار التاريخ ، حتى إذا جاء يبحث عن النصوص الأدبية التي تخلدها لا يكاد يظفر منها إلاّ بأطرافٍ ملقاةٍ ، و بضاعةٍ مزجاةٍ ، فكأن ثوراتنا و مقاومتنا لا أدب لها"([4]). إنَّ هذا التفسير المجرد لضعف الإنتاج الأدبي لهذه الفترة ، سيما أدب المقاومة قد يقنع بعض الناس و قد لا يقنع بعضهم الآخر ، لكنا إذا ما أضفنا له

---

[1] – عبد المالك مرتاض ،أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962 ، ج1 ، دار هومة ، الجزائر ، 2009م، ص 39.

[2] – عبد العزيز شرف ، المقاومة في الادب الجزائري المعاصر ، دار الجيل ، ط1 ، بيروت ، 1991م ، ص 45.

♦ – ربما الصحيح (نضارة الوجه).

[3] –عبد المالك مرتاض ،أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962 ، ج1 ، ص 39.

[4] – المرجع نفسه ، ص 9.

حجة أخرى أكثر واقعية فقد تستساغ الفكرة ، وهي غياب منتديات تدون و تحفظ و تحتفي بهذا الأدب لتعذُّر ذلك في ظل الهيمنة الاستعمارية. وعلى الرغم من كل ماذكرنا فإنَّ "المثقفيين والعلماء والشعراء الرسميين والشعبيين ،ظلوا يتغنون بالمقاومة ويشيدون بانتصار المقاومين في المعارك الضارية التي يخضونها ضد المحتلين الفرنسيين"([1]).

يذهب عبد المالك مرتاض إلى أنَّ أوضح الصور التي وصلتنا هنا ، هي قصيدة شعبية للشيخ عبد القادر الوهراني و التي مطلعها :

الايام يا اخواني تتبدل ساعتها ♦♦♦♦♦ و الدهر ينقلب و يولي في الحين

بعد كان سنجان البهجة و وجاقها♦♦♦♦الاجناس تخافها في البر و بحرين

منين راد ربي و وفى مجالهـــا♦♦♦♦و اعطاوها اهل الله الصالحين

الفرنسيس حرك لبها و خذاوها♦♦♦♦♦لا هي مياة مركب لا هي ميتين([2])

وجاوز عدد أبيات هذه القصيدة المئة بيت استهلها بالمقدمة الطللية السابقة والتي بكى فيها حال البلاد أين انتقلت من العافية إلى الجاثية ،فقد كانت مُهابة لايُشقُّ لها غبار في البر والبحر ، لكن اليوم غدت ذليلة مقهورة مغلوبةً على أمرها استحلَّ الفرنسيون بيضتها . يشعر القارئ لهذه القصيدة بألم الشاعر العميق و حسرته الكبيرة و حزنه الشديد لما آل إليه حال البلاد و العباد. لقد إحتفى عبد المالك مرتاض بهذه القصيدة إحتفاءً كبيرا ،فراح يعدد لها العناوين من "الطامة الكبرى" و "معلقة الجزائر الأولى" و "مرثية الجزائر" و "أم القصائد الشعبية" ، كما خصّ بعض أبياتها بالشرح و التحليل في الجزء الأول من كتابه (أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962م) من الصفحة 88 إلى الصفحة 110.

إنّ تاريخ الجزائر الحديث زاخرٌ برموز المقاومة و الجهاد و من الذين مجّدهم التاريخ ،الأمير عبد القادر .فعلى مدار عقدين من الزمن تقريبا دوَّخ الفرنسيين و أبلى في ساحات القتال بلاءًا

---

[1] – عبد المالك مرتاض ،أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962 ، ج1، ص18.

[2] –المرجع السابق ، ج1 ، ص 85.

حسناً ، فافتخر بإنجازاته في قصيدة سميت "لامية الأمير" تجاوز عدد أبياتها الأربعين (40) بيتا ،وصف فيها بحماسة كبيرة و شعرية رسينة بسالته في القتال و تضحياته وعائلته بالغالي والنفيس في سبيل هذه البلاد إذ يقول:

يا أيّها الريح الجنوب تحملي ♦♦♦♦♦ مِنِّي تحية مغرم و تجمّلي

و اقرِ السلام أهَيْلَ ودّيَ وانثري♦♦♦♦♦من طيب ما حُمّلت ريح قرنفل

حلّي خيام بني الكرام و خبري♦♦♦♦♦أني أبيت بحرقة و تبلبل

جفناي قد ألفا السهاد لبينكم ♦♦♦♦♦فلذا غدا طيب المنام بمعزل

كم ليلة قد بتُّها متحسرا♦♦♦♦♦كمبيت أرمد في شقا و تململ ([1]).

كما حضي الشيخ بوعمامة باهتمام الشعراء ، فشجاعته و تكبده المخاطر و الصعاب طوال أكثر من عشرين (20) سنة، محاربا و مقاوما حاملا هموم الأمة و معاناتها جعله من الرموز التي تستحق الذكر و التعظيم .و فيذلك نظمت "السيدة ربيعة بنت سي عبد الكريم بولقدام" قصيدة تمتدحه على مقاومته الباسلة و صموده الطويل متحصنا في الفيافي و القفار رافضا الظلم المسلط على بني جلدته و الخضوع للمحتل ،تقول:

الشيخ بوعمامة حرك تحريكتين♦♦♦♦♦طيح ميتين

الشيخ بوعمامة حرك تحريكتين♦♦♦♦♦نشبهم كالذبان

الشيخ بوعمامة يا هراس لقرون♦♦♦♦♦و يا دمار العديان

والشيخ بوعمامة وزاك من الرقاد♦♦♦♦♦عربك راها في الاحزان ([2])

حيث تتغنت بلغة عامية بشجاعة و شدّة بئس بوعمامة ،و كيف أنَّه بضربة و احدة يقتل مئتين، ولا شك أنها مبالغة كبيرة لكنها تشير بذلك إلى قوته و شدة بطشه بالأعداء عندما وصفته بـ(هراس لقرون) أي الذي يدمر الأعداء و يكسَّر و يسحق جماجمهم .

---

[1] – عبد المالك مرتاض ،أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830–1962 ، ج1، ص 169.

[2] – المرجع السابق ، ج1 ، ص118 و 119.

كتاب "المرآة" لحمدان خوجة: لا يمكن الإنفصال عن هذا العنصر دون التعرض لأقدم مدونة وصلت إلينا ،وضعها جزائري عن فترة الإحتلال الأولى يحكي فيها ما عايشه ،و هو كتاب "المرآة" لـ "حمدان خوجة" .شخصية الكاتب محل نزاعٍ بين الدارسين فقد إختلفوا فيه إختلافاً كبيراً من النقيض إلى النقيض ،و لا مجال للبحث في ذلك إلاَّ ما سنودره عرضاً، و حسبنا أن نتطرق لبعض جوانب مقاومته و رفضه للاستعمار . يُظهر حمدان خوجة من خلال كتابه (المرآة) حسرته وخيبة أمله من المدنية الأوروبية المزيفة التي تكيل بمكيالين،فقد تعرّف واحتكَّ بالثقافة الغربية و أعجب بالكثير من جوانبها المشرقة ، لكن عندما يعود إلى واقع الجزائريين يُصاب بخيبة أملٍ كبيرةٍ، ولعل هذا ما جعله يؤسس "أول حزب وطني سياسي جزائري ضدَّ هذا الاحتلال سمَّاه(حزب المقاومة) فقاوم داخله بلسانه و قلمه حتى نُفي إلى فرنسا"([1])♦، هناك ألَّف كتابه "المرآة و هو كتاب ألّفه بالفرنسية موجّه إلى الرأي العام الفرنسي ضدَّ سياسة الفرنسيين في الجزائر"([2])، و هو كتاب "غنيٌّ بالمعلومات و الوثائق و المواقف الواضحة والنبيلة أيضاً"([3])، و هو عكس ما ورد في "مذكراته إلى اللجنة الإفريقية الفرنسية التي جاءت من باريس للتحقيق في جرائم الحرب التي ارتكبها الجيش الفرنسي ضدَّ حقوق الإنسان ،و لم تكن هذه المذكرة بكلِّ أسفٍ... مشرِّفةً لحمدان خوجة"([4]). ثمّ يردف الدكتورعبد المالك مرتاض قائلاً "إننا نرى أنَّ حمدان خوجة من الشخصيات الوطنية الكبيرة التي يمكن أن نصفها بالإعتدال ، بكل ما يتولد عن ذلك الاعتدال من نتائج و أحكام ، وكان الفرنسيون راضيين عنه

---

[1] – محمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن حمدان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ، ج1 ، المجلد2 ، دار البصائر ، الجزائر، 2011، ص139.

♦هذه المعلومة ما وجدها إلاَّ في هذا المرجع.

[2] – محمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن حمدان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ، ج1 ، المجلد2 ص139 و 140.

[3] – عبد المالك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830–1962 ، الجزء 2 ،ص21.

[4] – المرجع نفسه ، ص 21.

إلى حدٍ كبيرٍ"([1]). لكن بالعودة إلى آخر ما كتبه حمدان خوجة في هذا الكتاب لا نقتنع كثيراً بوجهة نظر الدكتور مرتاض ، فهو يفتتح كتابه المرآة باستفهامٍ إنكاريٍّ: "هل تتجدد مصائب القرن السادس عشر في القرن التاسع عشر ،إنَّ كلّ ما وقع في الجزائر منذ ثلاث سنوات ، يفرض عليَّ واجباً مقدساً يتمثّل في التعريف بالوضع الحقيقي لهذا البلد قبل الغزو و بعده"([2]) . ثم يردف قائلاً : "إنَّ مسألة الجزائر مسألة خطيرة لأنها تخصُّ حياة أمةٍ بأجمعها ، تتكون من عشرة(10) ملايين نسمة ، وهي الأن من سوء الحظ في نقصان يتزايد من يوم لآخر بسبب الحرب ،و البلاد يقودها الظلم و الطغيان منذ ثلاث سنوات"([3])، هكذا بدأ حمدان خوجة كتابه، ثم عرض في الجزء الأول منه حالة الجزائر المستقرة قبل الإحتلال ،و في الجزء الثاني خصّصه لما بعد الغزو و كيف ساءت أوضاع البلاد و العباد ،ثمَّ يُقِيمُ في ثنايا الكتاب مقارنات بين الأوضاع قبل و بعد الإحتلال كأسلوب لردِّ ادعاء فرنسا برغبتها تمدين و تحَضّر الجزائر.

ولعل هذا التباين بين الدارسيين حول حمدان خوجة يعود إلى كونه ،كما أسلفنا ،مطّلع ومعجب بالمدنية الأوروبية ،فلما وجد البلاد في 1830م أمام واقعٍ جديدٍ و هو الإحتلال الذي لا يمكن دحره في ظل غياب القيادة (الداي) والجيش ،حاول النضال تحت راية الأفكار الأوروبية،و هو ما أثبته في مذكرته إلى اللجنة الإفريقية الفرنسية ،و مع مرور الوقت خَبِرَ الفرنسيين ،فاقتنع بعدم جدوى ذلك-النضال تحت راية الأفكار الأوروبية- فتغيرت نظرته فكتب "المرآة" ،و هو آخر عهده بالكتابة.

---

[1] – عبد المالك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962 ، الجزء 2 ، ص 21.

[2] – حمدان خوجة ، تقديم و تعريب و تحقيق:محمد العربي الزبيري ، المرآة ، ص45.

[3] –المرجع نفسه ، ص46.

المقاومة عند الجمعية:

أولا: من خلال نصوصها القانونية

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائرين سنة1931م على أساس أنها جمعية دينية ليس لها دخل في السياسة و شؤون الحكم ، فكانت لوائحها القانونية المؤسسة بعيدة عن إثارة أيّة شبهة سياسية ،قال البشير الإبراهيمي:" فأعلنا تأسيس الجمعية في شهر مايو سنة 1931م بعد أن أحضرنا لها قانونا أساسيا مختصراً من وضعي أدرته على قواعد من العلم والدين لاتثير شكاً ولا تخيف"([1]) .و هذا نابع من فلسفة الجمعية في التغيير و الإصلاح المستمدِّ من نصوص الوحيين القرآن الكريم و السنة النبوية ،و"من المعروف أن الإمام عبدالحميد بن باديس قد ربط نشاط الجمعية في دعوتها بالحياة الدينية و الثقافية و الإجتماعية و الإقتصادية باعتبار أن الدين الإسلامي هو دين شمولي في أسسه و مبادئه"([2]) .

و لقد كان قانونها الأساسي و اللوائح المئة و السبعة و الأربعين (147) الإضافية تدور حول الهيكلة الإدارية للجمعية و كيفية ممارسة عملها في محاربة البدع الطرقية و الجهل و الأمية ، و نشر التعليم و إحياء اللغة العربية و نفض الغبار عن الشخصية الجزائرية الإسلامية. جاء في المادة الأولى من "دستور العلماء على أن الجمعية لن تتدخل في الشؤون السياسية بأية حال و تصف نفس المادة الجمعية بأنها منظمة إرشادية و أخلاقية ،وتحدد المادة الثانية أهداف هذه المنظمة ، بأنها تحارب الأمراض الإجتماعية مثل الخمر و القمار و البطالة و الجهل و كل شيءٍ يمنعه الشرع الإسلامي و يحرمه العقل الإنساني و تشجعه الممارسة العامة [...] وهذا اعتمادا على الوسائل التي تراها مناسبة و مفيدة و قانونية ،كعقد الإجتماعات و تسيير

---

[1] -الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ،دار الأمة ، ط2 ، الجزائر ، 2008 ، ص 22.

[2] - عبد الكريم بوصصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى ، دار بهاء الدين ، ط 5، قسنطينة ، 2013 ، ص149.

حملات توعية و إرشاد"([1]) .و قد عمدت الجمعية على الإعلان عن أهدافها في وسائلها الإعلامية كما في مجلة "الشهاب" ،فكتبت في أحد أعدادها الصادرة سنة 1934 أنها تسعى إلى "إصلاح الشعب الجزائري العربي من الوجهة الدينية، والوطنية، والأدبية، والعلمية"([2]).

و جاء في مقدمة سجل جمعية العلماء لسنة 1935م ، و الذي يُعتبر الدستور الثاني للجمعية، -وكانت من وضع محمد البشير الإبراهيمي-مايلي:"جمعية العلماء جمعية علمية دينية تهذيبية، فهي بالصفة الأولى تعلم وتدعو إلى العلم [...] وهي بالصفة الثانية تعلم الدين الصحيح الصافي والعربية لأنهما شيئان متلازمان و هو جوهر عملها و بمقتضى الصفة الثالثة تدعو إلى مكارم الأخلاق التي حضَّ الدين والعقل عليها وتنفِّرُ من الرذائل بوسائل واضحة علنية مشروعة"([3])، و بإختصارٍ لخّص الدكتور عبد الكريم بوصفصاف ذلك في كلمتين:

"إحياء مجد الدين الإسلامي و إحياء مجد اللغة العربية"([4]) .

سار العلماء على هذا زمناً ،حتى أنك لا تكاد تجد خطبة أو مقالا لهم ، إلاَّ و تجد فيه إشارةً وإشادةً بهذا المنحى ،فهذا رئيس الجمعية عبد الحميد بن باديس يكتب في جريدة "النَّجاح" سنة 1935م قائلا: "إنَّ الغرض من تأسيس جمعية العلماء المسلميين الجزائريين هو محاربة الخرافات والشعوذة التي عمَّت البلاد نتيجة لأعمال الطرقيين"([5]) ،و قال أيضاً في تصديره للعدد الأول من صحيفة "السنة النبوية المحمدية" التابعة للجمعية "فها نحن اليوم نتقدم بهذه الصحيفة للأمة كلِّها على هذا القصد و على هذه النية :عملنا نشر السنة النبوية المحمدية وحمايتها من كل ما يمسها بأذية ،وخطتنا الأخذ بالثابت عند أهل النقل الموثوق بهم والإهتداء

---

[1] -أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية1900-1930،ج2 ،دار الغرب الإسلامي، ط4، بيروت، 1992م ص 396 .

[2] - المرجع السابق ، ج2 ، ص 397.

[3] -جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2009م ، ص58 و 59.

[4] - عبد الكريم بوصفاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى،ص 146.

[5] -المرجع نفسه . ص145.

بفهم الأئمة المعتمد عليهم ، و دعوة المسلمين كافة إلى السنة النبوية المحمدية دون تفريق بينهم ، وغايتنا أن يكون المسلمون مهتدين بهدى نبيهم في الأقوال والأفعال والسير والأحوال حتى يكونوا للناس كما كان هو صلى الله عليه و سلَّم مثالا أعلى في الكمال "[1]. وفي مقال له أيضا تحت عنوان "جمعية العلماء كيف يجب أن تكون و ما ينتظر منها" كتبه في بدايات نشاط الجمعية قال: "و يجب أن نقول من الآن إنّ الجمعية يجب أن لا تكون إلاَّ جمعية هداية و إرشادٍ لترقية الشعب من وهدة الجهل و السقوط الأخلاقي ،إلى أوج العلم و مكارم الأخلاق ، في نطاق دينها الذهبي ،وبهداية نبيِّها الأمي الذي بعث ليتمّم مكارم الأخلاق ،عليه وآله الصلاة والسلام، ولا يجوز بحال أن يكون لها بالسياسة وكل ما يتَّصل بالسياسة أدنى إتصال"[2] .

وفي تقريرٍ للجمعية كتبه الشيخ "العربي التبسي" ثم اعتُمد كمقدمة لكتاب "مبارك الميلي" المعنون "رسالة الشرك و مظاهره" قال: "فإن الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي عامة وتقوم بها جمعية العلماء في القطر الجزائري خاصة تتلخص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم والسير على منهاج سلفهم الصالح "[3]. ومن رجالات الجمعية الذين أدلوا بدلوهم في هذا الجانب أيضا الشيخ "محمد خير الدين" حيث قال: "إن أهداف جمعية العلماء تتمثل في إحياء الإسلام بإحياء الكتاب والسنة ،وإحياء اللغة العربية وآدابها ،وإحياء التاريخ الإسلامي ، وآثار رجاله المخلصين"[4].

نجحت الجمعية منذ البداية في إرساء وتثبيت هذه الصورة لدى جميع الفئات، الصديق منهم والنِّدّ والعدو. فهذا "فرحات عباس" مثلاً، على بعدٍ بينه وبين الجمعية هدفا ومنهجا ومرجعيةً

---

[1] – عبد الحميد بن باديس: كتاب آثار ابن باديس ،تصنيف وإعداد: عمار طالبي، المجلد2 ،الجزء1 ،دار الغرب الإسلامي ،ط4 ،تونس،2008 ،ص25.

[2] –آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ، ج4 ، دار البعث ،،ط1 ، الجزائر، 1985م ، ص55.

[3] –سعد بن عبد الرحمن الحصين ، تهذيب رسالة الشرك و مظاهره لمبارك الميلي، مكتبة الإمام الزهري ، ط1 ، قسنطينة ، 1436هـ ، ص 5.

[4] –عبد الكريم بوصصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى،ص 145.

-زمن ظهور الجمعية- كان يرى بأن برنامج الجمعية كان يتلخص في الرجوع الى العربية والاسلام ومحاربة أصحاب الزوايا والطرقيين المتواطئين مع الإستعمار وتكوين إطارات الثقافة العربية([1]) .

وحتى الطبقة المثقفة الفرنسية كانت تؤمن بهذا الأمر،فقد كتب في سنة 1932م المؤرخ الفرنسي "جوزيف ديبارمي" J . DEPARMIE "بأنّ أهداف جمعية العلماء تتمثّل في فهم لغة القرآن والعودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة، و اعتبار المغرب العربي كقلعة العبقريّة الشرقية في وجه الغرب، وتنقية وتبسيط الدين الإسلامي"([2]). و الفكرة نفسها تقريباً تبنّها "شارل أندري جوليان" عندما اِعتبر أنّ "العلماء يعملون لتطهير الإسلام وتكوين كيان جزائري قائم على الثقافة العربية الإسلامية"([3]) . كما وصفت الإدارة الفرنسية أهداف الجمعية بما وصفها بها مؤرخوها السالفو الذكر فخلصت إلى أنّ "أهداف الجمعية تتمثل في تجديد الإسلام وتطهيره من الخرافات التي ألصقها به شيوخ الزوايا، و تطوير التعليم الديني و الثقافة العربية"([4]).

لقد أحسن علماء الجمعية الترويج لتنظيمهم الوليد من خلال تبنّيهم لخطاب ديني اجتماعي ثقافي متجنبا السياسي، فلاقت ترحيبا من جميع التيارات، ومثله من سلطات الإحتلال التي منحتها الإعتماد بعد خمسة عشر(15) يوماً فقط من تقديمها لقانونها الأساسي للحكومة الفرنسية فهل دام هذا الوفاق طويلا؟ وماذا عن البعد عن السياسة؟ أليست فرنسا تحارب مقومات الأمة و على رأسها الدين الإسلامي و اللغة العربية اللذان هما المجال الحيوي لنشاط الجمعية؟ فكيف ستتصرّف إذن؟

---

[1] – يُنظر : عبد الكريم بوصصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى، ص146.

[2] –أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية 1900–1930 ، ج3، ص 86.

[3] –المرجع السابق ، ص 87.

[4] – عبد الكريم بوصصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى،ص 146.

ثانيا: الممارسة في الواقع

من السذاجة وقصور الفهم ،إستبعاد كون التحرر من الاستعمار الفرنسي هدفاً من أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،ذلك أنّه لا يُعقل أن تستنفر الجمعية كل رجالها و تحشد كل طاقاتها المادية والمعنوية في أمور تريد وتعمل على إحيائها ،مثل الدين واللغة والشخصية الوطنية ،في حين أنّ المحتلّ يعمل منذ بداياته على طمسها واقتلاعها من أصولها ، وإذا ما أضفنا إلى ذلك مرجعية الجمعية الدينية التي تستند على المرتكز الشرعي القائل أن لا سلطة لكافرٍ على مسلمٍ فالأمر ظاهر جلي ،لكن علماء الجمعية كانوا يعملون بمبدأ التدرج . كيف كان ذلك؟

كان راسخا في أذهان رجال الإصلاح أن أسباب نكبة الأمة الجزائرية أمران: الإستعمار والطرق الصوفية ،قال محمد البشير الإبراهيمي: " كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني و بين اِبن باديس منذ اجتماعنا في المدينة المنورة ،أنَّ البلاء المنصبَّ على هذا الشعب المسكين آتٍ من جهتين متعاونتين عليه ،وبعبارةٍ أوضح من اِستعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه ،اِستعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق [...] المتَّجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رِضاً وطواعيةً [...] والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته ومظهرهما معاً تجهيل الأمة [...] وتفقيرها [...] فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير بيني وبين إبن باديس أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنَّه أهون و كذلك فعلنا"([1]). إنَّ هذه النظرة الثاقبة للجمعية بعد تشريح حالة البلاد ،جعلتها ترسم أولوياتها فتوصّلت إلى ضرورة البدء بمحاربة الطرقية المتحالفة مع المحتل في تجهيل وتفقير الشعب ومن ثمَّ يجيىء حتما الدور على المستعمر الآخر.لم يكن هذا التفكير قاصراً وخاصاً برجال الجمعية، بل تبناه آخرون أمثال مالك بن نبي في (مشكلات الحضارة) حيث قال "إنّ جيل جدودنا الأقربيين، بالجزائر

[1] -الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ، ص 23 و 24.

على سبيل المثال ،قد أدرك عصر (الحاوي) الذي يخضع الثعبان لسحره ، فهو عصر البندير و (الفتة) الطرقية .لقد كان هذا كافيا لاستعمار تلك الجماهير التي غطّت في سباتِها الشتويِّ قرونا [...] فقد كانت هذه الوسائل ،رغم ما بها من البساطة ،في مستوى ذلك الوسط البسيط القابل للاستعمار"([1]) ،ثم يشير إلى استخدام المحتل الفرنسي لرجال الطرق للوصول إلى مآربه فيقول: "وشَعَرَ الاستعمار فعلاً بالخطر [...] فأخرج من شنطته رجلاً تأخذه من حين إلى حينٍ الحالة الصوفية [...] أخرجه كي يجدد به عصر الدراويش .فكان المنظر جذاباً [...] يلفت نظر الشعب البسيط [...] المتعطش لخوارق المعجزات [...] فيأتي بنقوده يقدّمها نذوراً عندما يدق البندير"([2]). فالإصلاح الحقيقي والعقلاني والواقعي المبني على بعد نظرٍ ودراية شاملةٍ لأصول العمل الذي يحكمه العقل لا العاطفة كان استتراتيجية العلماء في التغيير،قال "أبو القاسم سعد الله" في هذه النقطة: "ولكن الحقيقة هي أنَّ العلماء كانوا مصلحين بالمعنى الشامل للإصلاح و الإصلاح بالمعنى الشامل قد يبدأ بالثقافة أو بالدين أو بالمجتمع و لكنه في نهاية الأمر يغطي كل مظاهر الحياة في مجتمع ما بما في ذلك السياسة ،و هذا بالضّبط ما حدث للإصلاح في الجزائر"([3])، فكانت الإستراتيجية إذن "هي أن تكون المرحلة الأولى في الإصلاح هي علاج الشعب الجزائري من أمراضه الذاتية الداخلية ليكون مستعداً للمرحلة الثانية التي هي المقاومة المباشرة للإستعمار الفرنسي من أجل الإستقلال"([4]) .

فيمكن القول أنه كان للجمعية هدفان رئيسيان أولهما تصفية الإسلام مما علق به من الشوائب، و ثانيهما كان استرجاع استقلال الجزائر وتكوين دولة عربية إسلامية([5]) .وهكذا كان العلماء يدركون ويؤكدون بأن النهضة العلمية والدينية في الجزائر لا يمكن أن تكون بمعزل عن

---

[1]- مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ،2002 ، ص76.

[2] - المرجع نفسه ، ص77.

[3] -أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930 ،ج3 ، ص88.

[4] -يُنظر: عبد المجيد النجار ، ملامح من الاستراتيجية السياسية للإمام عبد الحميد بن باديس ، مجلة الوعى ، العدد الأول ، الجزائر ، جويلية 2010 ، الجزائر ص 83.

[5] -يُنظر:عبد الكريم بوصصاف،جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى،ص147

السياسة ،وفي هذا السياق قال ابن باديس سنة 1937م "لابدَّ لنا من الجمع بين السياسة و العلم و لا ينهض العلم و الدين حق النهوض إلاَّ إذا نهضت السياسة بجدٍّ"([1]).

وهكذا تبين لرجال الإصلاح من خلال نتائج تحليلهم للحالة الجزائرية أنّ استراتيجية العمل الواجب السير عليها تتلخص في محاربة الطرقية ونشر التعليم أولاً، وكل ذلك يمرّ عبر التركيز على الهوية و الإنتماء الحضاري الذي أراد المحتل طمس معالمه منذ البداية، ثمّ التدرج بعد ذلك في العمل السياسي.

1. **محاربة الطرقية:** منذ وطئ المستعمر أرض الجزائر تصدى له الشعب في مقاومات امتدت طيلة القرن التاسع عشر، تحت راية الزوايا والطرق الصوفية فما إنْ استطاعت فرنسا القضاء على تلك الثورات ،حتى عملت على احتواء وترويض تلك الطرق بشتى الوسائل الإرهابية تارة والإغرائية تارة أخرى، وما كاد يطل القرن العشرون حتى أُجبرت على الإنضمام إلى النظام الإستعماري، فأصبح همها تكثير سواد أتباعها لزيادة مداخيلها في المواسم التي كانت تقيمها تمجيداً لشيوخها، لدرجة أصبحت لهذه الغاية تروج بين الناس أفكاراً شركية وقصصا خرافية عن خوارق شيوخها مناقضة لدين الإسلام عقيدة وشريعة، فأصبح الناس بذلك رهائن عندها([2]).

كما عملت الطرقية على إخضاع الناس للمستعمر فاخترعت أفكاراً و نسبتها للشريعة فكانت تنشر بين مريديها مقالة حرَّفت فيها النصوص الواردة في القضاء والقدر، من ذلك ما أورده الدكتور "محمود قاسم" في كتابه "الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية" على لسان الطرقيين: "إذا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شيء قدير، فإذا أراد الله أن يكتسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل وكان ذلك عليه أمراً يسيراً [...]

---

[1] -يُنظر:عبد الكريم بوصصاف،جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى،ص148.

[2] -المرجع نفسه ، ص من 253 إلى 258.

و لكنه كما ترون يمدهم بالقوة، وهي مظهر قدرته الإلهية، فلنحمد الله ولنخضع لإرادته"([1]) وبذلك "صرفت الطرقية في الجزائر الناس عن العمل، وحببوا إليهم التواكل وأنكروا عليهم حرية الإرادة، وكادوا يجردونهم من قيمهم الإنسانية فشاعت المنكرات في الموالد والزردات، وساعد على ذلك عون الإدارة الفرنسية "([2]) .ولقد صوَّر البشير الإبراهيمي في عدّة صفحات فضاعة ذلك في سجل موتمر جمعية العلماء الجزائريين لسنة 1935م ومما قاله في آخره: "لعمرُك إن الطرقية في صميم حقيقتها احتكار لاستغلال المواهب والقوى، واستعمار بمعناه العصري الواسع، واستعباد بأفظع صوره ومظاهره"([3]) .

فلما عمَّ الخطب بتلك الأفكار التي تدعو إلى الخضوع والإستكانة باسم الدين الإسلامي و تبين ذلك واضحاً للعيان ،أطلق العلماء العنان لأقلامهم و جادت قرائحهم بخطب و مقالات و بيانات دكَّت حصون الطرقية و هزَّت عروشهم المحاطة بالخرافات ، فنقضوا المقالة الصوفية القائلة : "إعتقد ولا تنتقد" بمقولة "إنتقد قبل أن تعتقد" ،قال ابن باديس: "هنا اصطدمنا بزعماء الطرق وشيوخ الزوايا الإصطدام المعروف [...] فزعزعوا- أي العلماء- عقائد كانت تحسب من صميم الإيمان و نسفوا – أي العلماء- صروحاً مشيدة من الخرافات و الأوهام ، و زرعوا- أي العلماء – البذرة الأولى لتطهير العقائد و تحرير الأفكار"([4])، فلا يتم أي صلاح في ميادين الحياة مع و جود هذه الطرق ، فالقضاء عليها قضاء على كلِّ باطلٍ و ضلال([5]).

---

[1] – محمود قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، دار المعارفبمصر ،القاهرة، 1968،ص94.

[2] –المرجع السابق ، ص93.

[3] –جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجائريين 1935م ، دار المعرفة، الجزائر ، 2009 ، ص27.

[4] –يُنظر: سمير سمراد ، الطيب العقبي ، مجلة الإصلاح ،العدد الثالث ، الجزائر ، جمادى الأولى / جمادى الثانية 1428هـ الموافق لـ ماي / جوان 2007 ، ص 67 .

[5] –يُنظر:عبد الكريم بوصصاف،جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى،ص 279

وقد نال العلماء من جرّاء ذلك أذى كبيرا فدافعوا عن أنفسهم بأنهم في عملهم هذا يحمون جناب الشريعة وصفاء العقيدة و ليس طمعاً في رياسة ولا تصفية حسابات مع مشايخ الطرق و سدنة الأضرحة ، قال ابن باديس معبراً عن يأسه منهم "عرفت شيوخ الطرق أوقاتاً ثمَّ فارقتهم بتاتاً وما عرفتهم – علم الله – إلاَّ لأخدم معهم الجزائر و الإسلام و العربية ، أو أعمل معهم في سبيل الإسلام و العربية و الجزائر ، و ما فارقتهم حتى عرفت منهم أنهم مذهوب بهم في غير هذه السبيل ،و مساقون إلى ضدِّ تلك الغاية"([1]) ،فما كان منهم لما لم يبق مجال إلاّ لذلك "ويعترف – أي عبد الحميد بن باديس – بأنه حارب الطرقية لما عرف فيها من أنها بلاء على الأمة من الداخل و الخارج فبذل هو و أصحابه كل الجهد في القضاء عليها بعد أن كشف أهدافها"([2]). قال "الطيب العقبي" موضحا سبب هذا الخصام بين الجمعية والطرقيين"نحن لا نحارب المرابطيين لعداوة شخصية بيننا وبينهم، أو حسداً لهم على ما أُتوا من مرتبة وجاهٍ ، ولكننا نحارب الجهل والظلال اللّذين تلبسوا بهما [...] كما أننا نحارب الطرقيين لأنه لا طرق في الإسلام، إنما هو دين واحد وطريقة جامعة"([3])، كان موقف رجال الجمعية إذن كما قال البشير الإبراهيمي : "هو الغضب لله و لدينه و حرماته"([4]) .

لقد أبلى علماء الجمعية بلاءاً حسناً في هذه الحرب مع الطرقية ففي حين اتسعت و تعاظمت شعبية الجمعية و مكانتها في المجتمع و أصبحت تسير بأخبارها الركبان ، انحصر و انكمش نفوذ الطرقيين خاصة في المدن وأصبح العامة ينفرون منهم، لانجلاء حقيقتهم وبطلان منهجهم، فبينما كان العلماء يجمعون الأموال لبناء المساجد و المدارس و نشر العلم ، كان الطرقيون يستغلون أموال الأوقاف و الزيارات و الزردات لأغراضهم الشخصية([5])، إنّ نضال

---

[1] –آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ، طبعة وزارة الشؤون الدينية ،ص 304.

[2] – محمد قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، ص95.

[3] – عبد الكريم بوصصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى ،ص 271.

[4] – يُنظر: حسن أيت علجت ،موقف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من الصوفية ،مجلة الإصلاح ،العدد السادس و الثلاثون الجزائر ،شعبان / رمضان 1434هـ الموافق لـ ماي / جوان 2013 ، ص 45.

[5] –يُنظر: أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية1900–1930 ، ج3 ، ص96 .

ابن باديس و أعوانه ضد الطرقية نجح "في تصحيح المفاهيم الإسلامية و في بعث الجزائر بعثا روحياً مكنها من الخلاص نهائياً من المستعمر و عملائه"([1]).

2. نشر التعليم:

قال أبو القاسم سعد الله: "يمكن القول إن رسالة فرنسا في الجزائر كانت التجهيل وليس التعليم"([2]). إنّ الإستباحة المطلقة للحياة في الجزائر بُعيد الغزو من طرف الإحتلال سمحت لهذا الأخير بفرض نفسه عسكريا و سياسيا و حتى ثقافيا ،بعملها على القضاء على الكيانات العلمية من مساجد وزوايا وكتاتيب فلم يأفل القرن التاسع عشر حتى كان الجهل ضارباً أطنابه في الأمة الجزائرية و أصبحت الأمية سمة بارزة، "وقد بدأت فرنسا، منذ الغزو، تحارب الثقافة العربية، فقضت على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي وكانت مدينتا تلمسان و قسنطينة من أشهر هذه المراكز. كذلك أغلقت نحوا من ألف مدرسة إبتدائية و ثانوية و عالية كانت موجودة في الجزائر في سنة 1830م "([3]) ،و قد استنكر بعض المثقفيين الفرنسين ذلك منهم الكاتب "بولار" حيث حمَّل السلطات الإستعمارية لبلاده مسؤولية ما آلت إليه الجزائر حيث قال: "لقد أشاع دخول الفرنسيين في الأوساط العلمية و الأدبية اِضطرابا شديداً فهجر معظم الأساتذة الفذاذ مراكزهم هاربيين ، و لقد كان يقدَّر عدد الطلاب قبل 1830م بمائة و خمسين ألف طالب أو يزيدون ، ومهما يكن من شيءٍ فلم ينج من المدارس القديمة سوى عدد قليل من المدارس الصغيرة، وحرمت أجيال عديدة من التعليم"([4])، فتظافرت الأسباب لبروز "نخبة جمعية العلماء المسلمين التى أخذت على عاتقها استرجاع مجد

---

[1] – محمد قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ص95.

[2] – أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية1830-1900،ج1 ، ص384.

[3] – محمد قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ص7.

[4] – المرجع نفسه ، ص 7 و 8 .

التراث الثقافي واللغوي خصوصا في هذا المنعرج الحاسم في سنوات الثلاثينات..."([1]). لقد أيقن رجال الإصلاح في الجزائر،أن الجهل الذي عطَّل العقول هو الذي كبَّل الأيدي فبادروا إلى إصلاح عطب الأفكار في المقام الأول.. "فكان التركيز على ثلاثة مواضيع رئيسية و هي القرآن الكريم و علوم اللغة العربية و التاريخ الإسلامي و تاريخ الجزائر"([2]).

لمّا عاد الشيخ عبد الحميد بن باديس من المشرق 1914م عكف على التعليم و تفسير القرآن الكريم في المسجد الجامع لقسنطينة و تكاثر التلاميذ حوله لينهلوا من علمه الذي لم يكن متاحا في أماكن أخرى من الوطن ،قال محمد البشير الإبراهيمي و هو يتحدّث عن جهود إبن باديس في التعليم : "...و رأيت شبابا ممن تخرجوا على يدي هذا الرجل و قد أصبحوا ينظِمون الشعر العربي بلغة فصيحة و تركيب عربيٍ حرٍّ" ([3]). كان نشاط عبد الحميد بن باديس دؤوباً لا يفتر طول النهار و زلفاً من الليل "يعلم الصغار والكبار إبتداءاً من صلاة الفجر و انتهاءاً بعد صلاة العشاء فوجاً بعد فوجٍ .فدروسه العلمية تجذب أفواجاً من الشباب ، و دروس الوعظ و الإرشاد كانت تجذب الجماهير إلى حظيرة الإصلاح ، و تحدث كل يومٍ ثغرةً في صفوف الضلال"([4]) ثمّ يواصل سعيد بوخاش حديثه عن جهود ابن باديس في التدريس قائلا: "يشرح كتاب الشفا في تعريف حقوق المصطفى و الغرض من ذلك تعليم النشء السيرة النبوية ، و كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس ،وهو مذهب هذه الديار الجزائرية، وهو كتاب في الحديث النبوي الشريف والآثار عن الصحابة مرتبة على الأبواب الفقهية ، كما أنَّه كان يفسر القرآن الكريم و أثناء تفسيره كان

---

[1] -سعيد بوخاوش، مقاومة التيار الإصلاحي في الجزائر لسياسة الفرنسة و دوره في الحفاظ على اللغة العربية 1900م-1954م ، ،دار تفليت ، الجزائر، 2013 ، ص27 و 28.

[2] -مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماءالمسلمين الجزائريين و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1349-1358هـ /1931-1939م،جامعة الملك عبد العزيز، المدينة النبوية،1404-1405هـ / 1984-1985م، ص 89

[3] - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص 20.

[4] - - سعيد بوخاوش ، مقاومة التيار الإصلاحي في الجزائر لسياسة الفرنسة و دوره في الحفاظ على اللغة العربية 1900م-1954م، ص 53.

يبسِّط اللغة للطلبة مما جعله من الذين يحيون اللغة العربية و يجعلونها ميسورة لدى الطلبة"([1])، فكانت دروسه إذن على مدار الساعة، "يقضي بياض نهاره و زلفا من الليل في إلقاء الدروس لتلاميذه واحدا تلو الآخر، وختامها درس التفسير و قد يرتفع عددها إلى ثلاثة عشر درسا أحياناً في اليوم الواحد ، و يزداد نشاطه أثناء شهر رمضان"([2]) ، و لو أردنا الإحاطة بكل نشاط هذا الإمام لاستغرقنا كلَّ هذا البحث .

الرجل الثاني في الجمعية الذي لا يمكن المرور على هذه النقطة دون الحديث عن جهوده التعليمية ،هو محمد البشير الإبراهيمي نائب رئيس الجمعية ،الذي كان نشاطه كبيراً وفي صميم الأزمة الجزائرية ،يقول عن نشاطه عقب عودته إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى: "بدأت أولاً بعقد الندوات العلمية للطلبة ،والدروس الدينية للجماعات القليلة ،فلما تهيَّأت الفرصة انتقلت إلى إلقاء الدروس المنظمة للتلاميذ الملازمين ،ثمَّ تدرجت لإلقاء المحاظرات التاريخية و العلمية على الجماهير الحاشدة [...] و إلقاء دروس الوعظ و الإرشاد [...] ثم أنشأت مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشبان نشأة خاصة" ([3]) .

وجهود بقية أعضاء الجمعية كبيرة على طول البلاد و عرضها ، لكن جهود هذين الرجلين هي اللّبنة الأقوى في بدايات النهضة العلمية للبلاد إذ غذّت "الحالة العلمية بالجزائر[...] علم مبني على روح إسلامية عربية لا يمكن أن يقاومها مقاوم أو يعارضها معارض ، ولا يمكن للظلم أن يقف في طريقها"([4]). فبعد تأسيس الجمعية عرف التعليم طفرة كبيرة بتأسيس المدارس وانتداب المتخرجين من الزيتونة لتعليم أبناء الشعب تعليما عصريا وفق مناهج جديدة. كان "أسلوب الجمعية في التعليم الديني في المساجد:ينبني على إطلاقه العناية بالمعنى والنفوذ

---

[1] -- سعيد بوخاوش ، مقاومة التيار الإصلاحي في الجزائر لسياسة الفرنسة و دوره في الحفاظ على اللغة العربية 1900م-1954م، ص 54.

[2] -المرجع نفسه ، ص 54

[3] - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص 20 و 21.

[4] -عمار طالبي ، كتاب آثار ابن باديس ، المجلد2 ، الجزء2 ،ص333 .

إلى صميمه من أقرب طريق [...] بصورٍ عملية و تطبيقية [...] و أما التعليم المكتبي ، فأسلوب الجمعية في تلقين العربية يتلخص في تلقين التلاميذ أبسط القواعد في أسهل التراكيب ثمَّ تمكينها من نفوسهم بالتمرينات التطبيقية و تجلية المعاني مع تذوقها و إفساح والحضِّ على التعبير السليم"([1]).

نجحت الجمعية في التعليم نجاحا باهراً فالمنتسبون إلى مدارسها في تزايد مستمر إذ بلغوا الألاف و وصل عدد مدارسها سنة 1955م إلى أربعمئة (400) مدرسة أما معهد إبن باديس الثانوي فقد بلغ عدد طلابه التسعمئة (900) طالب([2]) . "إنّ التعليم الحر بمدارسه و حركاته و منظماته في الجزائر حلقة من حلقات كفاحنا الطويل المرير ،قد امتدت فروعه، و ترعرعت أفنانه، وأينعت ثماره ،وتوغلت جذوره في أعماق الأمة الجزائرية بأسرها ،فكان نضالاً ضد الجهل والأمية وحرباً ضد الجمود و التأخر ،و صراعا ضد الغزاة المستعمريين ، الذين وضعوا في مخططاتهم الجهنمية- في الدرجة الأولى- تجهيل الشعب الجزائري وقطع الصلة بينه و بين أصالته و دينه و لغته، ليسهل عليهم اقتياده كيفما شاؤوا وإلى أين يشاؤون"([3]). إنّ هذا التزايد الكبير والسريع في عدد المدارس و ما رافقه من زيادة عدد الطلاب، كان مثار سخط السلطات الفرنسية و أعوانها فسنّت "القوانين الاستثنائية الجائرة ، مستهدفة بالخصوص ضرب جمعية العلماء ،ففي الثامن من مارس سنة 1938م أصدرت السلطات الفرنسية قراراً يمنع فتح المدارس القرآنية بدون رخصة مسبقة منها خلافاً للقوانين الجارية عندئذ"([4]) ، وهذه هي الوسيلة التى وجدتها متاحةً يومها فقد أيقنت أن "حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بما لقَّنته للمسلمين وبخاصةٍ الشباب، من قيم الإسلام وتعميق الجذور الثقافية لبلدهم، قد حققت ضميراً

---

[1] – جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1935م ، ص50 ،

[2] – يُنظر: عبد المالك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962 ، ، ج1 ، ص 52 و 53.

[3] – محمد الحسن فضلاء ، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر ، غرناطة للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2014 ، ص 16.

[4] – أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية1900-1930 ،ج3 ، ص94.

وطنياً، فكانت حركة العلماء المؤسس الحقيقي و الواقعي للوطنية الجزائرية"([1]). كان ردُّ الجمعية حازماً على هذا التعسف الفرنسي في التعاطي مع جهود الجمعية "من ذلك موقفهم من منشور ميشال [...] فقد كان ردُّ فعلهم على هذا المنشور سريعاً و صارخاً ، فاحتجوا بالقلم واللسان و نظَّموا المظاهرات و الإحتجاجات و أبرقوا إلى من يهمهم الأمر ، و أرسلوا وفداً منهم إلى باريس [...] و نفس الموقف وقفه العلماء من قرار رينيه سنة 1935م"([2]).

إن تلك الأعمال التي قامت بها الجمعية في ميدان التعليم ، و التي لم يعتريها الفتور و التخاذل و لا النكوس و التراجع هي من أشرف أعمالها فقد ساهمت في بثِّ الوعي و اليقظة في الشعب و أصبح يعلم ما له و ما عليه ،كما أحيت تاريخ الإسلام و أمجاد الأسلاف التي لفَّها النسيان،و قامت بتجديد العقائد و تنقيتها من رواسب الضلال والإبتداع .قال البشير الإبراهيمي في ذلك "ولو نشاء لقلنا إننا أحيينا اللسان العربي ،والنخوة العربية ،وأحيينا دين الإسلام وتاريخه المشرق وأعدنا لهما سلطانهما على النفوس وتأثيرهما على العقول والأرواح [...] فأحيينا بذلك كله الشعب الجزائري فعرف نفسه ، فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال و يطلب بدمه الحياة السعيدة و العيشة الكريمة"([3]).

لقد غطَّت الجمعية بنشاطها طول البلاد وعرضها وغطّت أيضاً كل الميادين الثقافية فبدأ ابن باديس في تفسير القرآن منذ 1914م و لمدة خمسٍ وعشرين (25) سنة متواليات، كانت تنشر هذه الدروس في الدوريات الخاصة بالجمعية، المنتقد ثم في الشهاب بعنوان (مجالس التذكير)، كما شرح كتاب (الموطأ) للإمام مالك بن أنس ،و كان يقدّم دروسا أخرى في الوعظ و الإرشاد، ومثّله بقية الأعضاء. فتصدى البشير الإبراهيمي و الطيب العقبي للخطابة والرَّدِّ

---

[1] –فراس حمد فرسوني ،الفكر التحرري عند عبد الحميد بن باديس و أثره في استقلال الجزائر، مذكرة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا ،2009 ،ص81.

[2] – أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية 1900–1930م ، ج3 ، ص 93 و 94.

[3] – الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ، ص 31 و 32 ،.

على طعونات المخالفين ،وصنَّف مبارك الميلي رسالته المشهورة التي أغاضت الطرقيين وهي (رسالة الشرك و مظاهره) ، و ردَّ أيضا على الفرنسيين حينما ادعوا بأن الجزائر لا تاريخ لها حتى حلُّوا هم فيها ، بكتابه (تاريخ الجزائر في القديم و الحديث). فلم يكن لرجال الجمعية وقت لسفاسف الأمور و بنيات الطريق قال ابن باديس:

و دع غزلاً للغانيات فطالما ♦♦♦♦♦سلاعن و صال الغانيات نبيل

فديدني الآداب و العلم مقصدي♦♦♦♦♦و لا زلت في نيل المعالي أحول

و مثل ذلك قاله الطيب العقبي:

دع ذكر سلمى و سعاد♦♦♦♦♦و انهض لإصلاح البلاد([1]).

إنّ أكبر مُعينٍ لرجال الإصلاح في تبليغ رسالتها بعد المسجد هو الصحافة، "و من غير المنصف أن يتحدث متحدث عما يمكن أن نطلق عليه (ثقافة المقاومة الوطنية) في الجزائر،ولا يتحدث عن نضال هذه الصحافة و ما كابدته من اضطهادٍ ،و ما عانته في مقاومتها الإحتلال الفرنسي بكل ما كانت تمتلك من كلمة صادقة ، ولهجة حارة، ووجدان وطني فياض، وهو النضال الصحفي الذي كان الأستاذ (محمد علي دبوز) لايزال يطلق عليه ،في كتاباته الثقافية و التاريخية (الجهاد)"([2]). إذ قاموا بإصدار المنتقد سنة 1925م ، ثمَّ الشهاب سنة 1926م ، و بعدها الإصلاح في بسكرة سنة 1927م ، ثم البصائر الأولى سنة 1935م ، ثم البصائر الثانية بعد الحرب العالمية الثانية.

[1] – محمد ناصر ،الشعر الجزائري ،اتجاهاته و خصائصه الفنية 1925–1975م ، عالم المعرفة ، الجزائر ، طبعة خاصة 2013 ، ص77.

[2] – عبد المالك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830–1962 ، ص68.

3. الهوية و الإنتماء:

منذ اليوم الأول للإحتلال اِنتهج المستعمر سياسة الفرنسة في الجزائر لأنه كان يطمح للبقاء هنا إلى الأبد فسعى ليجعل من "الجزائريين شعباً مغايراً لحقيقته ومنسلِخاً عن شخصيته (دينه ولغته وثقافته و انتمائه الحضاري) ،ولتحقيق هذا الغرض انتهج سياسة الفرنسة"([1]) التي تهدف إلى تغريب المجتمع لعزل الجزائر عن بيئتها الإسلامية والعربية ،فكانت البداية باللغة "فقد جاء في إحدى التعليمات الصادرة إلى حاكم الجزائر غداة الإحتلال :أنَّ أيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلاَّ عندما تصبح لغتنا هناك قومية ،والعمل الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن"([2]) ،و هذا تأسياً بما فعلته البرتغال و إسبانيا و بريطانيا بشعوب القارة الأمريكية.

في 1930م أقامت فرنسا إحتفالات صاخبة دعت إليها الملوك و الرؤساء من جهات الأرض الأربع و مما جاء في خطب المسؤولين الفرنسيين: "إن أيام الإسلام الأخيرة قد حانت ،و لن يكون في الجزائر كلها بعد عشرين(20) سنة من إله غير المسيح . و قال آخر :إننا لا نحتفل اليوم بمرور قرن على احتلالنا و لكنّنا نحتفل بجنازة الإسلام الذي نشيعه إلى مثواه الأخير في هذه البلاد"([3]). لهذا إلتأم شمل العلماء وتنادو لدحض هذه الفرية وردِّ هذا البغي والباطل. في الحقيقة و قبل هذا التاريخ كان ميدان الهوية و الإنتماء ،الأكثر جاذبية للجمعية ، حتى غدا العلماء المصلحون فرسان الميدان فيه فلا يشقُّ لهم فيه غبار ،فاتخذت الجمعية لها شعاراً في صميم ذلك،"فالإسلام بتراثه الروحي العظيم و العربية بقيمها العريقة و الجزائر بماضيها المجيد ومستقبلها الزاهر هي المكونات الثلاث للشخصية الجزائرية في رأي ابن باديس و التي صاغ

---

[1] -سعيد بوخاوش ، مقاومة التيار الإصلاحي في الجزائر لسياسة الفرنسة و دوره في الحفاظ على اللغة العربية 1900-1954م ، ص117.

[2] -المرجع نفسه، ص117.

[3] - محمد الحسن فضلاء ، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر ، غرناطة للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2014 ، ص 21 و 22.

على أساسها شعاره المعروف (الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا)"[1]، فكان يُكتب على جرائدها و مجلاتها و كل منشوراتها، بل هو محور نشاطها كله ،ذلك أنّ العلماء حملوا على عاتقهم هموم الأمة كلها فشمّروا عن ساعد الجِدِّ غير آبهين بخصومهم فكان يُنقل عن عبد الحميد بن باديس قوله: "قد فهمنا و الله ما يُراد بنا، وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا ،وسنمضي بعون الله في تعليم ديننا و لغتنا، رغم كلِّ ما يصيبنا ،و لن يصدّنا عن ذلك شيء"[2] ، هذا العزم و الإصرار الواضح في هذه المسألة هو نابع من قناعة العلماء أنّ هذا واجبهم وقدرهم فلا يجب التقصير في ذلك قدر أنملةٍ "إنَّ جمعية العلماء هي المُؤتمنة عن الدين و لغته العربية و إليها يرجع الفضل في إحيائهما بهذا الوطن– برغم الأفاكين– وإليها يرجع الفضل أيضا في المطالبة بحقوقها بالصوت الجهير يوم كانت الأصوات خافتةً و القلوب من الرهبة واجفةً"[3]. قال محمد الحسن فضلاء و هو أحد تلاميذ الجمعية عند حديثه عن التعليم الحر الذي قاده علماء الإصلاح: " إنها – أي الجمعية– المهد الذي نشأ و تربى فيه الإسلام و العربية و الوطنية الصادقة ،و من هذه التنشئة استمد الشعب الجزائري القوة التي قهرت و دمرت العدو الغاصب و ساقته إلى الهزائم و الإندحار ثم إلى الجلاء"[4].

قال أحمد توفيق المدني منافحا و مرشدا:

---

[1] – عبد القادر فضيل و محمد الصالح رمضان ، إمام الجزائر عبد الحميد بن بادس ، شركة دار الأمة ،ط1 الجزائر،2007م ، ص 67.

[2] – فراس حمد فرسوني ، الفكر التحرري عند عبد الحميد بن باديس و أثره في استقلال الجزائر ، ،ص 80.

[3] – محمد البشير الإبراهيمي ،آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، المجلد 1 ، ط1 ، الجزائر،1978م ، ص188.

[4] – محمد الحسن فضلاء ،المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ص 16.

شيّدوا المدارس حرة عربية♦♦♦♦♦بلبانها غذُّوا البنين و ارضعوا

و تعهّدوهم إنهم آمالكم♦♦♦♦♦سِنّوا لهم سنن المحامد و اشرعوا

قرآنكم فيه السعادة و الهدى♦♦♦♦♦و لسانكم فيه البيان الأروع([1]).

و أصدق مثال و الصورة الناصعة في هذه النقطة مقال للشيخ عبد الحميد بن باديس الموسوم (كلمة صريحة)، الذي أحدث ضجّة كبيرة جداً. هذا المقال كان رداً على مثيلِه تحت عنوان (فرنسا هي أنا) لفرحات عباس زعيم التيار الاندماجي أنذاك ،و مما ورد في مقال هذا الأخير، قال: "إنني لست مستعدا للموت في سبيل الوطن الجزائري ،لأن هذا الوطن لا وجود له ،إنني لم أكتشفه. و لقد سألت عنه التاريخ ،و سألت عنه الأحياء و الأموات و زرت المقابر من أجل اكتشافه فلم أجد من كلّمني عنه إطلاقا. إننا لا يجب أن نبني فوق الرمال .وإنني قد أبعدت بصفة باتة ونهائية كل خيال، ولكي نربط المصير بصفة مطلقة مع الوجود الفرنسي بهذا البلد"([2]). انتفض ابن باديس انتفاضة عارمة في كلمته الصريحة ،حيث بدأها متهكما من الكاتب قائلا : "يقول المتصوف في السياسة:

فتّشت عليك يا فرانسا♦♦♦♦♦وجدت روحي أنا فرانسا"([3])♦

ثم يصعّد اللهجة "...إنّ هؤلاء المتكلمين باسم المسلمين الجزائريين والذين يصورون الرأي العام الجزائري بهذه الصورة إنما هم مخطئون [...] لا يا سادتي نحن نتكلم باسم قسم عظيم من الامة بل ندّعي أننا نتكلم باسم أغلبية الأمة فنقول لكم :إنكم من هذه الناحية لا تمثّلوننا ،ولا تتكلمون باسمنا ،و لا تعبرون عن شعورنا و أحاسيسنا ،إننا نحن فتّشنا في صحف التاريخ، وفتّشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت و وجدت

---

[1] -محمد صالح الجابري ، الأدب الجزائري المعاصر ، دار الجيل، ط1 ،بيروت ، 2005 ، ص303.

[2] – أحمد توفيق المدني ،حياة كفاح ، البصائر الجديدة للنشر و التوزيع ، ج2 ، الجزائر ،2013م ، ص72.

[3] – عمار طالبي ،كتاب آثار ابن باديس ، المجلد3 ، الجزء2 ،ص308 .

♦ – فرانسا هكذا وردت في آثار الشيخ مثبتة الألف.

أمم الدنيا"([1])، إلى هنا الخطاب موجه لفرحات عباس و أضرابه ،ثم تأتي كلمته الصريحة والموجهة للكل بما في ذلك فرنسا إذ يقول: "ثم إنّ هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا و لا يمكن أن تكون فرنسا و لا تريد أن تصير فرنسا ولو أرادت،بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ، لاتريد أن تندمج ،و لها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة..."([2]). أحدث هذا المقال زوبعة في البلاد فشُنّت الحملات الشعواء ضد الجمعية خاصة من الطرقيين ،لكن رُبَّ ضرّة نافعة "لقد أحدثت الكلمة الصريحة التي نشرناها بالعدد السابق من الشهاب أثرها المطلوب ،و كان لها الدوي العظيم الذي كنا نتوقعه لها"([3]) فقد آتت أُكلها فتراجع فرحات عباس عن تلك الأقوال فسارع لزيارة " إدارة الشهاب ،و يثني على جهدها و يحاور صاحبها و يعترف له بخطئه ويتراجع عما صرّح به"([4]) ،"ثم نشر مقالا في جريدة (لاديفانس) الصادقة الثابتة الجسورة ، يبين فيه نظريته ،و يشرح فيه فكرته الإجتماعية التي بنى عليها سلوكه السياسي."([5]).ولعل هذه الكلمة الصريحة للشيخ كانت بداية تخلي فرحات عباس عن أفكاره الإندماجية و اعتناقه الأفكار التحررية التي سطّرها في كتابه (ليل الاستعمار) ،حتى صار من أعلام الجزائر.

---

[1]- عمار طالبي ،كتاب آثار ابن باديس ، المجلد3 ، الجزء2 ،ص308 .

[2] - المرجع نفسه ،ص309 .

[3] - المرجع نفسه ،ص316 .

[4] - عبد القادر فضيل و محمد الصالح رمضان ، إمام الجزائر عبد الحميد بن بادس،ص 141.

[5] - عمار طالبي ،كتاب آثار ابن باديس، المجلد2 ، الجزء2 ،ص317 .

صور لأدب المقاومة عند بعض رموز الجمعية:

في حقيقة الأمر كانت جهود الجمعية في صميم العمل الوطني ،رغم أنّ مجال عملها هو الجانب الديني أكثر منه في الجوانب الأخرى .ذلك أن المستعمر أول ما حارب ،القيم الإسلامية و المؤسسات الدينية و مقومات الشخصية الوطنية ،و هو نطاق نشاط الجمعية .فرغم ما كان شائعا بأنها جمعية دينية تهذيبية لا تخوض في السياسة ،لكن الأيام والأحداث الجسام التي مرت بالبلاد ،كشفت الوجه الحقيقي للجمعية في أنها جمعية إصلاحية بالمعنى الشامل ،غير أنّ من فقه الأولويات العمل بحكمة وذكاء. فلما عرّفت الجمعية بمنهجها وأهدافها وبدأت النتائج تظهر في الواقع ،اِحتضنتها الأمة ،فلم تترك الأحداث المتسارعة زمن الثلاثينات للجمعية إلاّ خوض غمار السياسة. وكان أول نشاطها السياسي العلني الواضح إعدادها و مشاركتها الفعالة في المؤتمر الإسلامي سنة 1936م الذي رفع مطالب سياسية بالإضافة إلى مطالب أخرى دينية و اقتصادية و اجتماعية ومن ثمّت المشاركة في الوفد الذي ذهب إلى باريس لعرض تلك المطالب على الحكومة الفرنسية المركزية.

و بإطلالة على تراث رجال الجمعية ،نزداد يقيناً أنهم كانوا بجهودهم تلك في طليعة الحركية التي عرفتها الجزائر منذ منتصف العشرينات ،و ما يهمنا أكثر الجانب الأدبي الرّافض للمحتل و هذه بعض اللفتات اليسيرة جداً إلى هذا التراث.

1/عبد الحميد بن باديس: رائد النهضة و إمام الجزائر ،أشهر من نارٍ على علمٍ. سبق و أن أشرنا فيما سبق كيف كانت بدايات ابن باديس منذ عودته إلى الوطن سنة 1914م ،في العمل الدَّؤوب من أجل بعث الأمة الجزائرية ،وهو كما ذكرنا بداية الانبعاث و تكوين طبقة-و لِمَا لا- جيلا متعلماً متشبعاً بالثقافة الإسلامية العربية. أمّا سياسيا فإسهاماته تتمثّل في مقالاتٍ وردودٍ ومساجلاتٍ مع السلطات الفرنسية وعملائها ،وكذا بعض خصوم الإصلاح المتشبعين بالثقافة الغربية. ومقال (كلمة صريحة) الذي توقفنا عنده في المبحث السابق ،صورة جليّة من أدب

المقاومة ،فقد كان ذا نفسٍ استقلالي إنتفاضي ،في تحدٍ واضحٍ للحكومة الفرنسية . و نعرض نموذجا آخر لابن باديس وهي قصيدته المشهورة التي طارت في الآفاق وحفظتها الأجيال وهي قصيدة: (شعب الجزائر مسلم) .نظمها ابن باديس بعد عودته من باريس ضمن بعثة المؤتمر الإسلامي لإيصال لائحة مطالب المؤتمر للحكومة الفرنسية المركزية. يحدد في مطلعها ثوابت الأمة الجزائرية التي تُراد فرنسا وأذنابها من المتجنسيين و الاندماجيين طمسها:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ♦♦♦♦♦وَإِلَى الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبْ

مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ♦♦♦♦♦أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبْ

أَوْ رَامَ إِدْمَاجًا لَهُ♦♦♦♦♦رَامَ الْمُحَالَ مِنَ الطَّلَبْ([1])

ثم يواصل في القصيدة متوجهاً للنشء ،ناصحاً للأمّة ،مرشداً إلى "الأسس التي يجب أن تتخذ لتحرير الجزائر .وكأنّه كان يقرأ الغيب عندما حدد مبادئ ثورة التحرير"([2])،وهي العلم و العدل و الصارمة في مجابهة المحتل و أعوانه من المعمرين و الخونة (الحركى):

يَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا ♦♦♦♦♦ وَبِكَ الصَّبَاحُ قَدِ اقْتَرَبْ

خُذْ لِلْحَيَاةِ سِلاَحَهَا ♦♦♦♦♦ وَخُضِ الْخُطُوبَ وَلاَ تَهَبْ

وَارْفَعْ مَنَارَ الْعَدْلِ ♦♦♦♦♦ وَالإِحْسَانِ وَاصْدُمْ مَنْ غَصَبْ

وَاقْلَعْ جُذُورَ الْخَائِنِينَ ♦♦♦♦♦ فَمِنْهُمُ كُلُّ الْعَطَبْ

وَأَذِقْ نُفُوسَ الظَّالِمِينَ ♦♦♦♦♦ سُمًّا يُمْزَجُ بِالرَّهَبْ

---

[1] – محمود قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لجبهة التحرير الجزائرية ، دار المعارف المصرية، القاهرة 1968م ، ص31.

[2] – المرجع السابق ، ص31.

وَاهْزُزْ نُفُوسَ الْجَامِدِينَ ♦♦♦♦♦ فَرُبَّمَا حَيَّ الْخَشَبْ([1])

و في الأبيات المتبقية يشير إلى النِّدِّية التي يجب أن تطبع علاقات الجزائر مع الآخرين في ضرورة مراعاة التقدير والاحترام المتبادل ،وهذا ليس معروفاً سَيسْدِيهِ أحد لنا ،و إنما من صنيع سواعد أبناء الجزائر و تضحياتهم .و في الأخير ،وكأنها وصية مودَّعٍ يُلحُّ على وصيّته التي تضمّنتها الأبيات السّابقة:

مَنْ كَانَ يَبْغِي وُدَّنَا ♦♦♦♦♦ فَعَلَى الْكَرَامَةِ وَالرَّحَبْ

أوْ كَانَ يَبْغِي ذُلَّنَا♦♦♦♦♦ فَلَهُ الْمَهَانَةُ وَالْحَرَبْ

هَذَا نِظَامُ حَيَاتِنَا ♦♦♦♦♦ بِالنُّورِ خُطَّ وَباللَّهَبْ

حَتَّى يَعُودَ لِقَوْمِنَا ♦♦♦♦♦ مِنْ مَجْدِهِمْ مَا قَدْ ذَهَبْ

هَذَا لَكُمْ عَهْدِي بِهِ ♦♦♦♦♦حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَبْ

فَإِذَا هَلَكْتُ فَصَيْحَتِي ♦♦♦♦♦ تَحْيَا الْجَزَائِرُ وَالْعَرَبْ([2])

2/محمد البشير الإبراهيمي: الرئيس و الرجل الثاني في الجمعية ،خطيب مفوّه و أديب مكثر في الخطابة و المقال الأدبي، والذي كثيرا ما كان يتطرق فيه إلى هموم أمته ، مقاسما مع أبناء وطنه معاناته و اضدهاده من محتلّه.

كتب الإبراهيمي كثيراً في معارضة فرنسا في سياساتها في الجزائر و بلسان عربي مبينٍ يَندُرُ مثيله، في بلدٍ منكوبٍ (من النّكبة) في مقوماته منذ قرنٍ من الزمان .و سنعرض لمقالٍ بليغ نشره في جريدة البصائر الثانية العدد الرابع سنة 1947م تحت عنوان (الكلمة الأخيرة للأمة). جاء هذا المقال في وقتٍ مازال فيه الجزائريون يبكون موتاهم الذين سقطوا في أحداث الثامن

[1] – محمود قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لجبهة التحرير الجزائرية، ص31.

[2] – المرجع السابق ، ص 32 .

ماي1945م، فيشاركهم الإبراهيمي ذلك بالإنكار الشديد على الذين مازالوا يصفقون لفرنسا، حاثاً لهم بالرجوع إلى كنف أمتهم ومشاركتهم فيما هي مُقدمة عليه في المستقبل لامحالة وهي الثورة فالكلام إبتداءً موجه للمغرَّرين بهم من الجزائريين الذين مازالوا طامعين في مَدَنِيَةِ فرنسا ،لكن في ثناياه رسالةً مُبَطّنةً مُوجّهة للمحتل.

يبدأ الإبراهيمي مقاله بأسئلةٍ إنكارية فيها الكثير من اللّومِ و الإمتعاضِ مبيناً الموقف الواجب على كلّ جزائريٍّ أن يتّخذه من فرنسا بعد تلك الأحداث الدموية ،إذ يقول: "أَمَا آن لعشّاق سلمى أن يقولوا : صَحَا القلب عن سلمى؟ أما آن للحالمين بالوحدة الفرنسية أن ينفضوا عنهم الأحلام؟ أما آن للمنتظرين ،أن يقطعوا حبل الانتظار؟ أما آن للمستعصمين بالأمل ،أن يُريقوا صُبابة الأمل؟"([1])، واستخدام الابراهيمي لهذاالأسلوب فيه إشارة إلى جسامة خطئهم و سذاجة عقولهم و انتكاسة فهومهم، فراح يخاطبهم بلغةٍ شرعيةٍ تارةً و بلغةِ الواقع الملاحظ تارة أخرى غير آبَهٍ بالعواقب والعقوبات الفرنسية التي يمكن أن تطاله والجمعية لِفَرْطِ صراحته في هذا المقال،فيقول :"يا هؤلاء ،إنّ الاستعمار شيطان ،و إنّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتّخذوه عدوًّا، وإن الاستعمار شرٌّ ،و محال أن يأتِيَ الشرُّ بخيرٍ ،و محال أن يُجنى من الشوك العنب"([2])، ثم يعدِّدُ مثالب السياسة الفرنسية في هضم حقوق الغير،وعدم الاعتداد بالآخرين ،وعدم أخذ العبر من التاريخ ، مردِّداً بلسان حاله قول الشاعر العربي:

لقد أسمعت لو ناديت حيا♦♦♦♦♦ولكن لا حياة لمن تنادي

و لو ناراً نفخت بها أضاءت♦♦♦♦♦و لكن أنت تنفخ في رماد

و بلسان مقاله: " إنّ فرنسا نَبيَّةُ الاستعمار ،و أنّها ترى أنّه شرعٌ لا يُنسخ و عقد لا يُفسخُ [...] ولكننا كنا نظن أن تلك القلوب القاسية ترقّقها الشدائد ،وأنّ تلك النفوس العاتية تلطفها المصائب وأن تلك الإحساسات الغليظة تُرهفها مناظر البؤس الذي نزل بها ،و توقظها أصوات القوارع

1 – محمد البشير الإبراهيمي ،عيون البصائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ص 321.

2 – المرجع نفسه ، ص 321.

التي حلَّت بدارها ،من اكتساح الألمان لها و اجتياحها لديارها في يومٍ و بعضِ يومٍ"([1]) ،و هنا يشير الإبراهيمي إلى المأساة التي عاشتها فرنسا إبان الغزو النَّازي لأراضيها في الحرب العالمية الثانية والمجازر التي اِقترفت هناك ،و تضحيات الجزائريين في سبيل تحريرها كلُّ ذلك لم يشفع للجزائرين الذين أرادوا الاحتفال بنهاية الحرب و طَلَبْ حقوقهم كبقية الأمم ،فجاءهم الجواب من الألة العسكرية بمجازر 08 ماي 1945م، فلا مجال للحديث، كل ذلك لم يغير من نظرة فرنسا للجزائر شيئاً. ثم يوجه في ختام مقاله نداءً إلى النواب الجزائريين في البرلمان الفرنسي: "أيّها المترددون على قصر البورمون ،إنّه لا طارد كاليأس ،و قد أيأَسُوكم فكأنهم طردوكم ،فارجعوا ارجعوا و تداعوا إلى الإتحاد على الحقِّ الواضح بالمنطق المعقول ،فإنَّ القوم قد اتحدوا على هضمكم بالمنطق المسلح ،ارجعوا واجتمعوا واجمعوا الأمة في مؤتمرٍ،و اشرحوا لها الحقيقة و دعوا لها الكلمة الأخيرة في تجديد الموقف وتقرير المستقبل"([2])و كأنّه يُشير إلى قرب نهاية استراحة المحارب الجزائري.

أما بعد اندلاع الثورة و في اليوم الموالي نشر الإبراهيمي من القاهرة باسم الجمعية بيانا بعنوان (مبادئ الثورة في الجزائر)، سار فيه مساره السابق في الإنكار والتنديد بالسياسة الفرنسية بأسلوبه الفريد و تصوير بديع للأحداث الجارية واستشراف سديد للعواقب ،فيقول: "تأجّج اللهيب بتونس فقلنا: هذا نذير من النذر الأولى ،وعسى أن تكون لفرنسا فيه عبرة ، وتأجّج في مراكش (المغرب) فقلنا: عسى أن يكون لها فيه مزدجر ،وهاهو ذا يتأجّج في الجزائر،و لو كانت فرنسا على بقيةٍ من كياس و عقل ،لجارت تيار الزمن و لم تعاكسه"([3]) ، و في آخر المقال اِختصر في بضع كلماتٍ قرناً من الاحتلال و ما أفرزه من المقاومة و النضال: "إنّ فرنسا ابتلعت أجزاء

---

1 – محمد البشير الإبراهيمي ،عيون البصائر، ص 321.

2 – المرجع نفسه ، ص 322.

3 – عبد القادر نور ،صوت الإمام الإبراهيمي في الثورة . أحاديث الإمام عن الثورة في إذاعة صوت العرب ، دار الوعى ،ط1، الجزائر ، 2013م ، ص26.

الوطن الواحدعلى ثلاث لقم♦، ثم أوهمتنا وأوهمت العالم أنّ هذه العملية لا تسمى ابتلاعاً، وإنما هي تكييف كيماوي تصبح به أمة متمدنة ،و كذّبَها الله و كذّبَها طبع السوء فيها ،فكنَّا في حَشَاهَا أشواكاً تَخِزُ و أوجاعاً تُؤلم ،فإذا هدأَ الوَخْزُ و الإيلامُ، فإنما هي هدأة عارِضةٌ ،ثم تعود و ستلفظنا مكرهةً عند الحشرجةِ الأخيرة من حياتها ،و سنكون سبب موتها"([1]).

3/محمد العيد آل خليفة: شاعر الجمعية و أمير شعراء الجزائر، شعره "ساير نهضة الجزائر الحديثة و واكبها ،فهو قلبها الخافق و لسانها الناطق و ترجمانها الصادق ،و هو مع ما فيه من بلاغة التعبير و صدق التصوير يمثل الإيمان بالدين و الوطن ،ويدعو إلى الثورة المسلحة على الاستعمار قبل اندلاعها بسنين..."([2]) . قال الإبراهيمي عن نظمه ما نصّه : "شاعر مستكمل الأدوات ،خصيب الذهن ،رحب الخيال ،متسع جوانب الفكر ،طائر اللمحة ، مشرق الديباجة، متين التراكيب ،فحل الأسلوب ،فخم الألفاظ ،محكم النسج ملتحمه ،مترقرق القوافي ،لبق في تصريف الألفاظ و تنزيلها في مواضعها ، بصير بدقائق استعمالات البلغاء ،ففيه محقق في مفردات اللغة علما و عملا ،وقَّافٌ عند حدود القواعد العلمية ،محترم للأوضاع الصحيحة في علوم اللغة كلها ،لا تقف في شعره –على كثرته– على شذوذٍ أو رخصةٍ أو تسمّحٍ في قياسٍ، أو تقعيدٍ في تركيبٍ ،أو معاظلةٍ في أسلوبٍ . بارع الصنعة في الجناس و الطباق و إرسال المثل و الترصيع بالنكت الأدبية و القصص التاريخية"([3]). فالذي اجتمعت فيه هذه الخلال،و لابدَّ أن يكون شعره في المقاومة مصاحباً لجسامة ما حلَّ بالبلاد كما العباد .

خاطب محمد العيد فرنسا عقب الإنتخابات و فوز اليسار فيها، و الذي كان الجزائريون يعوِّلون عليه لتحسين أوضاعهم ،خاطبهم بهذه الأبيات:

♦ يشير هنا إلى بلدان المغرب العربي الثلاثة الجزائر ،و تونس ،و المغرب.

[1] – عبد القادر نور ،صوت الإمام الإبراهيمي في الثورة . أحاديث الإمام عن الثورة في إذاعة صوت العرب ، دار الوعي ، الجزائر ،ط1 ، 2013م ، ص29.

[2] – محمد العيد آل خليفة ،ديوان محمد العيد آل خليفة ، دار الهدى ، الجزائر ، 2010م ، ص 4.

[3] – المرجع نفسه ، ص 6.

يا فرنسا رُدّي الحقوق علينا ◆◆◆◆ و أقلّي الأذى و كُفّي الوعيدا

نحن رغم الطغاة في الارض أحرا ◆◆◆◆◆ رّ و إن خالنا الطغاة عبيدا([1]).

كانت أحداث 08 ماي 1945م يوماً مشهودا لدى الجزائريين ،تركت جراحاً غائرة في نفوس الذين عاصروها ،فتحركت مشاعر محمد العيد ونطق لسانه بسينية موشّحةٍ بالسوادِ عنوانها (لا أنسى) و فيه تعريضٌ بالإنتقام الآتي ،قال في مطلعها:

أ أكتمُ وجدي أو أُهدِّئُ إحساسي ◆◆◆◆◆و (ثامن ماي) جرحه ما له آسَي

أرقب ممّن أحدثوه ضِمادة ◆◆◆◆◆و هم في جماح لم يميلوا لإسلاسِ

تمرُّ الليالي و هو يَدمي فلم نجد ◆◆◆◆◆له مرهما منهم سوى العنف و الباسِ([2])

و بعد عدِّه و وصفه لتلك الفضائع التي تعرّض لها الشعب ،يستدرك على نفسه بكائه على الأطلال و يعلن القطيعة مع المحتلّ:

سئمنا من الشكوى إلى غير راحم ◆◆◆◆◆و غير محقٍ لا يدين بقسطاسِ

و ما وعدهم إلاّ سراب بقيعةٍ ◆◆◆◆◆و ما عهدهم الإمداد بقرطاس([3])

وفي الأخير يعلن القطيعة مع فرنسا على لسان الشعب و يضرب لها موعداً مجهول الزمان والمكان ،متنبِّئاً بالثورة:

يا أيها الشعب المروع لا تضِق ◆◆◆◆◆بدنياك ذرعا و اْطَّرِح خُلق الياسِ

و قل للذي آذاك لا وصل بيننا ◆◆◆◆◆و موعدنا العقبى فما أنا بالنَّاسي([4])

---

[1] – محمد العيد آل خليفة ،ديوان محمد العيد آل خليفة ، ، ص 268.

[2] – المرجع نفسه ، ص 296.

[3] – المرجع نفسه ، ص 297.

[4] – المرجع نفسه ، ص 197.

و فعلا جاءت الثورة و لم يلبث شاعرنا طويلاً حتى قُبض عليه و وُضع قيد الإقامة الجبرية في بسكرة إلى غاية الإستقلال ، و كان يحُزُّ في نفسه أنْ عُزِل عن الثورة ،و لكنّه كان يواسي نفسه ببعض القصائد الثورية ،قال في إحداها متخيلاً الاستقلال:

كأني بالمواكب و هي نشوى ◆◆◆◆◆من التحرير تَرفُل في الحرير

و تهتف للجزائر عابرات ◆◆◆◆◆بشتى الطرق تعبقُ بالعبير

و ما شعب الجزائر غير شعبٍ ◆◆◆◆◆ سخي بالفدى حرِّ الضمير

و حسبك ثورة الأحرار حكما ◆◆◆◆◆أخيراً منه في العهد الأخير

و لا تزعجك آلاف الضحايا ◆◆◆◆◆و ما أجراه من دمه الغزير

فتلك شهادة الشهداء فيه ◆◆◆◆◆و ذلك أجرُ مطلبه الكبير

أتى استقلاله حتماً فأبشر ◆◆◆◆◆و بشِّر ما لقولك من نكير

فليس لأمةٍ بالحق ثارت◆◆◆◆◆مصير غير تقرير المصير([1])

[1] – محمد العيد آل خليفة ،ديوان محمد العيد آل خليفة، ص 386 و 387.

الفصل الثاني:

أدب المقاومة عند أحمد توفيق المدني

من خلال مقال "بين الحياة والموت"

التعريف بأحمد توفيق المدني:

هو أحمد توفيق بن محمد بن أحمد المدني، ولد في تونس بتاريخ: 14 جمادى الثانية 1317هـ الموافق لـ 01 نوفمبر 1898م([1]) ،من أبويين جزائريين لاجئين في تونس، إسم العائلة هو "بن عمر" وهو الحي العتيق المعروف حاليا في القبة في الجزائر العاصمة([2])، فرَّت أسرته إلى تونس كما الكثير من الأسر الجزائرية نتيجة البطش الفرنسي غداة الإحتلال. تهيَّأت للمترجَم له أسباب طلب العلم لم يكن ليظفر بها في الجزائر كانت تونس في تلك الفترة تعيش حيوية ونشاطاً فكريا وتعليميا كبيرا، بالإضافة إلى حرص عائلته – المثقفة أصلاً – والأم على وجه الخصوص، والأهم من ذلك كلّه ميولات أحمد توفيق المدني التعلُّمية. ألحقه أبوه وهو في الرابعة من عمره بأحدى الكتاتيب الاهلية لتحفيظ القرآن الكريم، "وتخرج منها سنة 1913م وقد درس العلوم الدينية والنحو والصرف والبلاغة والرياضيات والكمياء الطبيعة ومبادئ اللغة الفرنسية"([3]). بعدها التحق بجامع الزيتونة أين اتخذ لنفسه منهجاً خاصاً مكثَّفاً لمدة عشر(10) ساعات يومياً متنقلاً بين مختلف الحلقات، وفي الكل التخصصات الدينية وعلوم الألة، وبموزاة ذلك إنتسب إلى المدرسة الخلدونية المكملة للدراسة الزيتونية فيما يتعلق بالعلوم الرياضية والتاريخ العام، وكان يخصص أوقات أخرى للمطالعة في فنون شتى من تاريخ وسياسة وأدب وروايات...([4]) .

في سنة 1915م أُلقت السلطات الفرنسية القبض عليه بتهمة التحريض عليها وسجنته إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى، لكن السجن لم يردعه في مناهضة فرنسا فعاد للنشاط السياسي بعزم و إصرارٍ أكبر فما كان من المحتل إلاّ أنْ نفاه إلى الجزائر سنة 1925م. واصل

---

[1] – أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ،البصائر الجديدة ،الجزائر ، ج1 ، 2013 ، ص15.

[2] – عبد القادر خليفي ، أحمد توفيق المدني و دوره في الحياة السياسية و الثقافية بتونس و الجزائر 1899م – 1983م ، دار المحابر للنشر و التوزيع ، 2013م ،ص48.

[3] – أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، ج1 ، ص71.

[4] – يُنظر: أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، ج1 ، ص 72 و 73.

المدني نضاله في الجزائر على صفحات "الشهاب" و "الإصلاح" ،إلى أن تأسست جمعية العلماء أين كان من رجال الصف الثاني الذين سيقودون الجمعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى غاية الثورة التحريرية التي إنظم إليها وانخرط في جبهة التحرير الوطني فعيِّن في الوفد الخارجي بالقاهرة، و بعد تأسيس الحكومة المؤقتة عُيِّن وزيرا للشؤون الثقافية، فمندوباً دائماً للجزائر في جامعة الدول العربية سنة 1960م.

تقلد توفيق المدني بعد الإستقلال عدَّة مناصب في الدولة، بداية من عضو في المجلس التأسيسي، ثمّ وزيراً للحبوس (الأوقاف) في أول حكومة للجزائر المستقلّة، أين اِضطلع بمهمة اِسترجاع الأوقاف الإسلامية خاصة المساجد. ثمّ اُختِير لعضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1967م خلفا للبشير الإبرهيمي المتوفى، كما تقلّد مهام دبلوماسية كسفير في عدّة دول إسلامية وعربية. وفي 1973م عُيّن مستشارٍ تاريخي بمركز الدراسات التاريخية إلى غاية تاريخ وفاته يوم 18 اكتوبر 1983م عن عمر ناهز 85 سنة.

ترك أحمد توفيق المدني عدَّة تآليف:

-"كتاب الجزائر" ، صدر سنة 1931م و هو أول كتبه، عن تاريخ وجغرافيا الجزائر والحياة الإجتماعية المعاصرة له .

-"هذه هي الجزائر" أصدره في القاهرة سنة 1956م.

- "حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر و اسبانيا".

- تحقيق مذكرات الحاج أحمد شريف الزهَّار.

-"حياة كفاح" و هي مذكراته الشخصية في ثلاثة أجزاءٍ.([1])

---

[1] – اِستفدت السيرة الذاتية للمدني من :

-مذكراته

- عبد القادر خليفي: أحمد توفيق المدني و دوره في الحياة السياسية و الثقافية بتونس و الجزائر

- عمر بن قينة:أعلام و أعمال في الفكر و الثقافة و الأدب.

مذكرات أحمد توفيق المدني وأهم محاورها:

المذكرات فنٌّ جديد على العالم العربي لم تكن له أصول مضبوطة تهدي الكاتب كي لا يسقط في الذاتية، قال أبو القاسم سعد الله: " تُعدُّ كتابة المذكرات عملاً جديداً في الحياة الفكرية والسياسية بالجزائر، وإنَّ الرجوع بالإنسان إلى الوراء، ومراجعة أعماله ،و علاقاته بنفسه و رواية أخباره في صورة ذاتية تعتمد القصَّ والتدخل الشخصي ،كان ذلك عملاً جديداً ،و هو ظاهرة ثقافية حضارية أيضاً "([1]).

خاض أحمد توفيق المدني تجربة كتابة المذكرات ،فكتب مذكراته الشخصية وجعل لها عنوانا (حياة كفاح)،و هو من أهم تراثه لما لها من قيمة تاريخية، لأنها تُؤرّخ لفترة مهمة من تاريخ الجزائر بقلم أحد صانعيه ،كما أنّ لها قيمة أدبية ،لأن صاحبها من رجال الأدب كتب في كل الفنون الأدبية (الخطابة ، المقال بكل أنواعه خاصة المقال الصحفي ، الشعر...). "حياة كفاح [...] يعطي صورة حيّةً عن نضال رجلٍ وعناده ،و صمود أمة و غلبتها على مختلف الأعداء الخارجيين"([2])، بأسلوبه الخاص وفهمه للأحداث فقد "قدّم خلالها المؤلف تعريفاً بقصة حياته و تجاربه ،باعتباره شاهدَ عصره ،كتبها بأسلوبٍ شيِّقٍ و أفكار واضحة، وعبارات منسجمة ،اعطى خلالها نظرةً عن الأحداث و الحقائق التي عاصرها"([3]) ، مستخرجا و مستشهدا من أرشيفه الشخصي بما "استطاع أن يجمع من وثائق هامة تفيد الباحثين في التاريخ"([4]). في بدايات كتاباته عزم المدني على إصدار مذكراته كالتالي:

---

[1]- أبو القاسم سعد الله :تاريخ الجزائر الثقافي ، ج7 ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، 1998م، ص450.

[2] - عمر بن قينة : أعمال في الفكر الثقافة و الأدب ، إتحاد الكتّاب العرب ، دمشق ، 2000م ، ص114.

[3] - عبد القادر خليفي : أحمد توفيق المدني النضال السياسي و الإسهام الفكري في الساحتين الجزائريةوالتونسية 1899-1983م ، ص389.

[4] - المرجع نفسه ، ص389.

"القسم الأول :في تونس ،منذ الولادة إلى سنة 1925م.

القسم الثاني :في الجزائر ،من سنة 1925م إلى سنة 1954م.

القسم الثالث :خلال الثورة من 1954م إلى 1962م.

القسم الرابع :بعد الثورة من 1962م إلى اليوم."([1]). و هذا القسم الأخير لم يرى النور ،فقد اِختَرَمَته المنايا و هو يجمع مادته العلمية .

القسم الأول :من الولادة إلى سنة 1925م: يشمل الفترة التي عاشها المدني في تونس، مسقط رأسه وطفولته وتعليمه، وبدايات نضاله ضد الإحتلال الفرنسي وقد صدّره بقوله "خُلقتُ ثائراً، حيثما تكون الثورة أكون، وتكون ثورةٌ حيثما أكون"([2])، فكان نشاطه ملحوظاً حكى عنه بالتفصيل في هذا الجزء، وأورد بعض خطبه ومقالاته الصحفية والأدبية من قبيل "قلم المنصور". كما تحدث هنا أيضا عن تفاصيل سجنه إبان فترة الحرب العالمية الأولى، ثمّ إبعاده إلى الجزائر سنة 1925م.

القسم الثاني:في الجزائر من سنة 1925م إلى سنة 1954م: و هو يغطي فترة اِنتقاله إلى الجزائر إلى غاية اِندلاع الثورة .في هذه الفترة كانت الساحة الأدبية الجزائرية "إصلاحية" بامتياز ممثلة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،حيث كان للمدني قصبُ السّبقِ فيها ،فقد أصبح من رجال الصفِّ الثاني فيها في فترة وجيزة ،لتطابق الرؤى ،فكان رئيس تحرير لسان حال الجمعية جريدة "البصائر"،و هو منبر قاوم منه المدني الأفكار الإستعمارية طوال تلك الفترة، فكتب المئات من المقالات في الصحف، وذاع صيته أكثر لجرأته المفرطة. أطال المدني النفس في هذا الجزء فروى تجربته وانطباعاته عن الحركة الإصلاحية، وكل الأحداث التي تزامنت مع هذه لفترة.

القسم الثالث:خلال الثورة من 1954م إلى 1962م: اِحتفى المدني كثيراً بهذه الثورة رغم أنّه لم يكن من مفجريها المباشرين ،ذلك أنّ طبعه يميل إلى الثورة ، كما أشرنا من قبل عند حديثنا

---

[1] – أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، ج1 ، ص11.

[2] – المرجع نفسه ، ص5 .

عن القسم الأول من المذكرات .عرض في هذا القسم نشاطه الشخصي في الثورة ،وإسهاماته السياسية و الفكرية من خلال مقالاته و خطبه التي كان يلقيها سراً و علناً.

أمّا عن المنهج الذي اتّبعه في هذه المذكرات ،فيقول عنه: "ولست خلال كتابتي هذه مفتّشاً عن جملة ناصعةٍ ،أو عبارةٍ برّاقةٍ ،أو تعبيرٍ أدبيٍّ ثريٍّ ،بل إنما هي الفكرة أطلقها سليقياً ،الذاكرة تمليها و القلم يرسمها ،لا أكاد أتدخّل بينهما إلاّ نادراً"([1]) ،و كأنه يتوقّع ردود فعل معارضة لطريقة طرحه في مذكراته فاستبق الأمر .كما نبّه في القسم الثالث منها أيضاً لأمر مهمٍ في الأدب عامة و في فنّ المذكرات خاصةً و هو الذاتية في عرض الأحداث و الأفكار ،حيث اِعتذر لنفسه بأنّه شاهد يروي شهادته و ليس راوياً يقف على جميع الحقائق و الأحداث ثمّ يخرج برواية جامعةٍ مانعةٍ "فإن كنت خلال هذا الجزء من كتابي، أو خلال ما سبقه وما سيتبعه بحول الله استعمل عبارات : قلت ،فعلت ،رأيت ،سمعت ،فتلك العبارات التي يستعملها الشاهد وهو يدلي بشهادته ، ويقول: ما شهدنا إلاّ بما علمنا..."([2]).

أحدثت مذكرات المدني جدلا فكرياً واسعاً في البلاد و خارجها (خاصة تونس) ،بين مشيدٍ بالرجل و إسهاماته ،وبين منكرٍ عليه تعاطيه لقضايا حساسة على نحوٍ غير سليمٍ، محاولاً تكيف الأحداث لما يخدم شخصه، ولإضهار نفسه، والإشادة بدوره، و تصويره لوقوع الأحداث. " ولعل من المآخذ التي وُجّهت إلى كاتبها ،بعد جانب التمويه و التقدير ،هي ذاتيته في الطرح وتصدُّره للوقائع ،و صناعة الحدث التاريخي"([3]) ،وهو ما يجعل المؤرخ في ريبة من أمره في قبول أو ردّ شهاداته خاصة إذا خلت من أدلةٍ تنهض بروايته .لكن يمكن الاستدراك على هذا الموقف ،تناسي أصحابه أنّ هذا الفنّ (المذكرات) أولاً هو وليد جديد في بيئة جزائرية جديدة (مرحلة الاستقلال)، لا يستحسن مقابلته بهذا التصلب ،بل يُحاول تقويم الإعوجاج الذي قد

---

[1] – أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، ج1، ص10 .

[2] – المرجع نفسه ،ج3 ، ص12.

[3] – عبد القادر خليفي : أحمد توفيق المدني، النضال السياسي و الإسهام الفكري، ص396.

يلحقه هذا جانب ،و جانب آخر له وزنه أيضاً و هو أن هذا الفنّ ،يحكي تجربة و رؤيةً شخصية للأحداث ما يجعلها أقرب إلى الذاتية منها إلى الموضوعية.

مقال :"بين الحياة و الموت" في الرد على دعاة الاندماج والتجنيس:

عرفت مرحلة الثلاثينات صراعاً عنيفاً بين توجهين ،التوجه المحافظ الذي تقوده جمعية العلماء المسلمين ،التي ترفض التخلي عن المبادئ الإسلامية و العربية للأمة الجزائرية. والتوجه الإندماجي الذي يدعو إلى التسليم بالأمر الواقع ،وبالتالي الإنخراط في المدنية الأوروبية عبر التجنّس بالجنسية الفرنسية والتخلي عن الهوية القومية الجزائرية.

كان أحمد توفيق المدني في قلب هذا الصراع ،ذلك أن هذا هو ميدانه الذي يَجِدُّ و يُجيدُ فيه، وكذا لسمعته الطيبة في الدفاع عن ثوابت الأمة. و اِخترنا مقالاً جريئاً ،مباشراً لا لفَّ فيه و لا دوران ،طافحاً بمشاعر القومية و الوطنية ،عنوانه "**بين الموت و الحياة**" ،و هذا العنوان ذو رمزية ،إذ يشير بالموت إلى الإندماج و الحياة إلى التشبث بالأصالة الوطنية التي يراد إماتتها.

سبب كتابة هذا المقال هو أن جريدة "الإصلاح" التي تصدر في بسكرة نشرت سلسلة مقالات في سنة 1930م، وفرنسا تستعدّ للاِحتفال بمئوية الإحتلال، تدعو هذه المقالات تصريحاً وتلميحاً للإندماج والتجنيس متحجّجةً بما وصلت إليه البلاد من تخلف ، بدعوى أنّ تجنّس الشعب سيمكنه من نيل حقوقه..هذا المنهج كان محل سخط المدني فقال عنه "كانت دعاية فاجرة اِنتشرت في القوم اِنتشار النار في الهشيم"([1])، فكتب هذا المقال و بعث به إلى تلك الجريدة، فقامت بنشره ثمّ أعادت "الشهاب" نشره.

[1] – أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، ج2 ، ص193.

اِفتتح المدني مقاله بمقدمة اِستعراضية لحال أمةٍ يُراد لها أن تَنُوه ،بأن تنسلخ من إسلامها وعروبتها ،فترتع في مستنقع التجنيس فتضمحلّ، فهي الآن في "منعطفٍ صعبٍ من تاريخ حياتنا القومية"([1])، وفي المنعطف طريقان شرّحهما المدني حالهما، فالأول هو الإندماجي يقول عنه: "طريق التجنيس، والتنازل عن القومية واللغة، ونبذ التاريخ والتقاليد، والدخول في جنسية جديدة [...] وقبول ما يتبع ذلك التجنيس والإندماج من أخلاق جديدة ولغة جديدة وعقلية جديدة"([2]).

و يلاحظ هنا كيف بدأ المدني يعرِّضُ بهذا التوجه ،و يلمزه ببعض الألفاظ التي نلمس في سياقها نفوره من هذا الإتجاه ،و رغبته في تنفير قارئه أيضاً.

وعلى نقيض السابق ينتقي المدني الكلمات لنصرة الطريق الثاني "طريق المحافظة على الذاتية الجزائرية، أي المحافظة على دين البلاد وعلى لغتها ،وعلى تقاليدها ،وعلى مدنيتها الخاصة ، وعلى توثيق الرابطة بين حاضرها وبين تاريخها المجيد ،والأخذ من ثمرات المدنية الغربية بكل نافعٍ مفيدٍ لا يمس العقيدة والوطنية ولا يعتدي على كرامة البلاد"([3])، ولا شكّ أن هذه الكلمات البرّاقة سيكون لها الأثر الكبير على الوطنيين والغيوريين ،فمِن حماية وصونٍ لتراث الأمة وتاريخها إلى محاولة إصلاح واقعها لضمان مستقبل أحسن مما هي عليه الآن ،وهو أمل كلِّ الشعب .هذا الوتر الحسّاس هو الرّكيزة التي بنى عليها المدني مقاله هذا ،فيقول "إن الطريق الثاني ،طريق المحافظة المتينة على الذاتية الإسلامية العربية ،هو وحده الذي يمكن أن يُوصِل إلى غايةٍ محمودة و إلى مركزٍ شريفٍ"([4]). ثمّ يمضي للرّدّ بالحجج على أنصار الفريق الأول قائلاً "وهل يمكن لشعب الجزائر العربي المسلم أن يصبح شعباً فرنسياً خالصاً؟ في آدابه ولغته

---

[1]- أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، ج2، ص 196 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 196 و 197 .

[3] - المرجع نفسه ، ص197.

[4] - المرجع نفسه ، ص 197.

وتقاليده وعوائده، ويتخلص ولو في عدّة قرون من دمه الخالص وكل مميزاته ووراثته"([1]). هذا الإستفهام الذي استعمله هنا غير حقيقي ،فهو للإستنكار والإستهجان على أصحاب هذا الفكر السقيم. ثمّ ساق بعض الأمثلة عن إحتلال بعض الدول لكنّها لم تنسلخ عن محيطها رغم طول ذلك الإحتلال "فهل أصبحت إرلاندا إنكليزية وإنكلترا تحتلّها منذ قرون؟ و هل أصبحت الهند إنكليزية وهي خاضعة للأسد البريطاني قروناً عدّة؟ وهل أصبح البولونيون ألماناً وروساً ونمساويين أيام سقطوا تحت نير الإحتلال الثلاثي؟ وهل ترك اليونانيون قوميتهم ولغتهم ومدنيتهم عندما أرضخهم الأتراك؟"([2]). وحتى الجزائر مرَّ عليها أكثر من إحتلال لكن لم يتغير شيء فما بالنا نحن اليوم؟ "لقد دام الإحتلال الروماني للجزائر رهيباً شديداً ،زهاء الستة قرون ، فما أصبح سكان الجزائر رومانيين أثناء تلك المدة، ورضخوا قرناً لسلطة الوندال فما أصبحوا وندالاً واحتلهم الروم فلم يرجعوا روماً ،وأخيراً حكمهم الأتراك وهم أبناء دينهم زهاء ثلاثة قرون فلم يستتركوا"([3]) ،فلماذا عندما جاءت فرنسا يتغير الحال ،فيواصل قائلاً: "فكيف تريدون أن تبتدع الجزائر سُنّةً جديدة في سنن العمران وتسعى لأن تندمج في أمة غالبة ،متنازلة عن كل مميزاتها الخاصة ،ذلك ما لم تقم به أيُّةُ أمةٍ من أمم العالم وقعت تحت الإحتلال الاجنبي ، فالتجنيس في المستعمرات بدعة إبتدعها الفرنسيون"([4]) .ثمّ بيّن عدم جدّية فرنسا في دعواها بتمدين الجزائر، فجاء ببعض الأمثلة والحوادث التي استخلص منها أن الجزائري يبقى دائماً في درجةٍ دون الأوروبي الذي يجب أن يكون دائما المهيمن والمسيطر على مفاصيل البلاد سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا...فهذه الطريق إذن غير سالكةٍ ،والتي على الجزائر أن تسلكها "هي طريقة المحافظة على الذاتية الدينية والعربية ،والسير في طريق النور والرقي داخل منطقة

---

[1] – أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، ج2، ص 197.

[2] – المرجع نفسه ، ص 198.

[3] – المرجع نفسه ، ص 198.

[4] – المرجع نفسه ، ص 198.

ذاتيتها الإسلامية العربية"([1]). فالأمر جلل إذن ليس قضية جنسية يحملها مواطن فقط بل "هي مسألة المحافظة على الإسلام وعلى العربية، وهذه المحافظة هي البرنامج الوحيد الذي يجب أن يكون، برنامج الجزائر بأسرها في حاضرها و مستقبلها"([2]). وكما سبق أن رأينا فيما تقدّم من هذا البحث ،كيف أن فرنسا كانت تبني كل سياساتها في الجزائر على محاربة الدين الإسلامي واللغة العربية بغية استئصالهما من المجتمع.

وفي آخر المقال بعث المدني رسالتين: الأولى لعامة الشعب يدعوه فيها للرباط على الثوابت "فيا شعب الجزائر: عربيتك ودينك في حالة تلاش واضمحلال، وناشئتك في جهل وإهمال، وإنّ مستقبلك كأمة إسلامية بين يديك، فإن شئت عملا صالحا فهذا أوان العمل الصالح"([3])، والثانية إلى الذين مازالوا طامعين في المدينة الفرنسية، باسطا إليهم يده للتعاون لخير هذه البلاد فقال لهم :"لسنا الآن في وقت يسمح لنا أن نتشاجر فيه وأن نختلف،بل نحن في وقت يوجب علينا أن نوحد الجهود ،وأن نكون صفا واحدا يعمل بعزيمة لا تلين في سبيل الله و الأمة والوطن"([4]). وهنا يتجلى نفسه الوطني السامي ،فحين يتعلق بالمصالح العليا للأمة فيجب أن تُطوى الخلافات الجانبية.

هذا المقال نموذج واحد من كثير ،كتبها أحمد توفيق المدني في ردَّ بغي البغاة ،و ظلم الطغاة، وكيد الأعداء،دفاعاًعن أمته ،مُسمعاً صوتها ،مُصوّراً آلامها وآمالها، بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ متسلّحاً بالجرأة و الشجاعة ،يوم كانت عملةً نادرةً.

---

[1] – أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، ج2، ص 199.

[2] – المرجع نفسه ، ص 200.

[3] – المرجع نفسه ، ص 203.

[4] – المرجع نفسه ، ص 203.

الخاتمة

خلصنا في هذا البحث إلى مجموعة من النتائج، نلخصها فيما يلي:

- التعرف على جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. في الأخذ بيد الأمة الجزائرية لاسترداد شخصيتها وتعزيز كيانها من خلال جهودها التعليمية والتربوية، في مقاومة الأفكار التي يروّجها المحتل وأعوانه والدائريين في فلكهما، لاسيما الأفكار المتعلقة بالهوية والانتماء الحضاري، إذ تصدّت لها الجمعية رافعةً شعارها المشهور "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا".

- نجاح الجمعية في مسيرتها النضالية، وخطّتها التي رسمها ابن باديس والإبراهيمي في لقائهما الشهير في المدينة النبوية سنة 1913م، فتمكّنت من تغيير التفكير لدى المجتمع، فهدمت في عقدين ونيّف ما بنته فرنسا في قرنٍ من الزمان، ثمّ شرعت في تجديد البناء على قواعدها المتينة، فكانت النتيجة ذلك الجيل الذي فجّر ثورة نوفمبر 1954م.

- كما سمح لي هذا البحث بالتعرّف عن قرب بأحد شخصيات الجمعية الناشطين في ميدان المقاومة الأدبية، وهو أحمد توفيق المدني، والاطلاع على جهوده في التصدي للمشروع الاستعماري، من خلال كتاباته في البصائر خاصة، ونشاطه في النوادي الثقافية، كنادي الترقي، بالإضافة إلى خطبه ومذكراته.

إنّ البحث في موضوع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمقاومة من المواضيع المطروقة بكثرة، لكن في جوانبه التاريخية والسياسية، أمّا الجمعية والمقاومة في جانبها الأدبي، فهناك فراغ كبير أرجو أن تكون هذه المذكرة قد فتحت الباب على باحثين آخرين للتعمق فيه أكثر، واستدراك ما فاتنا فيها.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب

1- الإبراهيمي محمد البشير، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1 ، الجزائر،1978م.

2- الإبراهيمي محمد البشير، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.1971م.

3- الأسطة عادل، أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، مؤسسة فلسطين للثقافة، ط2 ، دمشق، 1429هـ/2008م.

4- آل خليفة محمد العيد، ديوان محمد العيد آل خليفة ، دار الهدى ، الجزائر ، 2010م.

5- ابن باديس عبد الحميد، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، ط1 ، الجزائر، 1985م.

6- ابن باديس عبد الحميد، كتاب آثار ابن باديس ،تصنيف وإعداد: عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، ط4، تونس، 2008م.

7- بوخاوش سعيد، مقاومة التيار الإصلاحي في الجزائر لسياسة الفرنسة ودوره في الحفاظ على اللغة العربية 1900م-1954م، دار تفليت، الجزائر، 2013م.

8- بوصصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى ،دار بهاء الدين ،ط 5، قسنطينة، 2013م.

9- الجابري محمد صالح، الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل ، ط1 ،بيروت ، 2005م.

10- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2009م.

11- الحصين سعد بن عبد الرحمن، تهذيب رسالة الشرك و مظاهره لمبارك الميلي، مكتبة الإمام الزهري، ط1، قسنطينة، 1436هـ.

12- خليفي عبد القادر، أحمد توفيق المدني و دوره في الحياة السياسية و الثقافية بتونس والجزائر 1899م – 1983م، دار المحابر للنشر والتوزيع، 2013م.

13- خوجة حمدان بن عثمان ، المرآة ، تعريب:محمد العربي الزبيري ، طباعة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007.

14- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930 ،دار الغرب الإسلامي، ط4، بيروت، 1992م.

15- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، 1998م.

16- شاكر محمود، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط2 ، بيروت ، 1996.

17- شاوش محمد بن رمضان و الغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2011م.

18- شرف عبد العزيز، المقاومة في الادب الجزائري المعاصر، دار الجيل، ط1، بيروت، 1991م.

19- فضلاء محمد الحسن، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2014م.

20- فضيل عبد القادر ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، شركة دار الأمة، ، ط1، الجزائر،2007 م .

21- قاسم محمود، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1968م.

22- بن قينة عمر ، أعمال في الفكر والثقافة والأدب، إتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2000م.

23- كنفاني غسان، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، مطبعة كركي ، ط1 ، بيروت،2013م.

24- المدني أحمد توفيق، حياة كفاح ، البصائر الجديدة للنشر و التوزيع، الجزائر ،2013م.

25- مرتاض عبد المالك، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 2009م.

26- مطبقاني مازن صلاح حامد، جمعية العلماءالمسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1349-1358هـ /1931-1939م، جامعة الملك عبد العزيز، المدينة النبوية،1404هـ.

27- ناصر محمد، الشعر الجزائري واتجاهاته و خصائصه الفنية 1925-1975م، عالم المعرفة، الجزائر ، طبعة خاصة 2013م.

28- ابن نبي مالك، في مهب المعركة، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2002م.

29- نور عبد القادر، صوت الإمام الإبراهيمي في الثورة أحاديث الإمام عن الثورة في إذاعة صوت العرب، دار الوعي، ط1، الجزائر، 2013م.

ثانياً: الرسائل الجامعية والدوريات

30- فرسوني فراس حمد، الفكر التحرري عند عبد الحميد بن باديس وأثره في استقلال الجزائر، مذكرة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا ،2009م.

31- مجلة الإصلاح، الجزائر، 2007م.

32- مجلة الوعي، الجزائر ، 2010م.

الفهرس

المقدّمة 01

المدخل 06

الفصل الأول: أدب المقاومة في القرن19م وعند جمعية العلماء 10

- أدب المقاومة في القرن19م 11
- أدب المقاومة وعند جمعية العلماء 18

أولا: من خلال نصوصها القانونية 18

ثانيا: الممارسة في الواقع 22

1/ محاربة الطرقية 24

2/ نشر التعليم 27

3/ الهوية والانتماء 33

- صور لأدب المقاومة عند بعض رموز الجمعية 37

1/ عبد الحميد بن باديس 37

2/ محمد البشير الإبراهيمي 39

3/ محمد العيد آل خليفة 42

الفصل الثاني: أدب المقاومة عند أحمد توفيق المدني من خلال مقال"بين الحياة والموت 45

- التعريف بأحمد توفيق المدني 46
- مذكرات أحمد توفيق المدني وأهم محاورها 48
- مقال "بين الحياة والموت" في الرّد على دعاة الاندماج والتجنيس 51

الخاتمة 55

قائمة المصادر والمراجع 57

الفهرس 61